

الكتاب العربي السعودي



قصص من: سومرست موم

نقلها إلى العربية:

عزيز ضياء

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ - ١٩٨١م



الكتاب العربي السعودي ٣٩



قصصٌ من
سومرست موم

نقلها إلى العربية:

عزيز ضياء

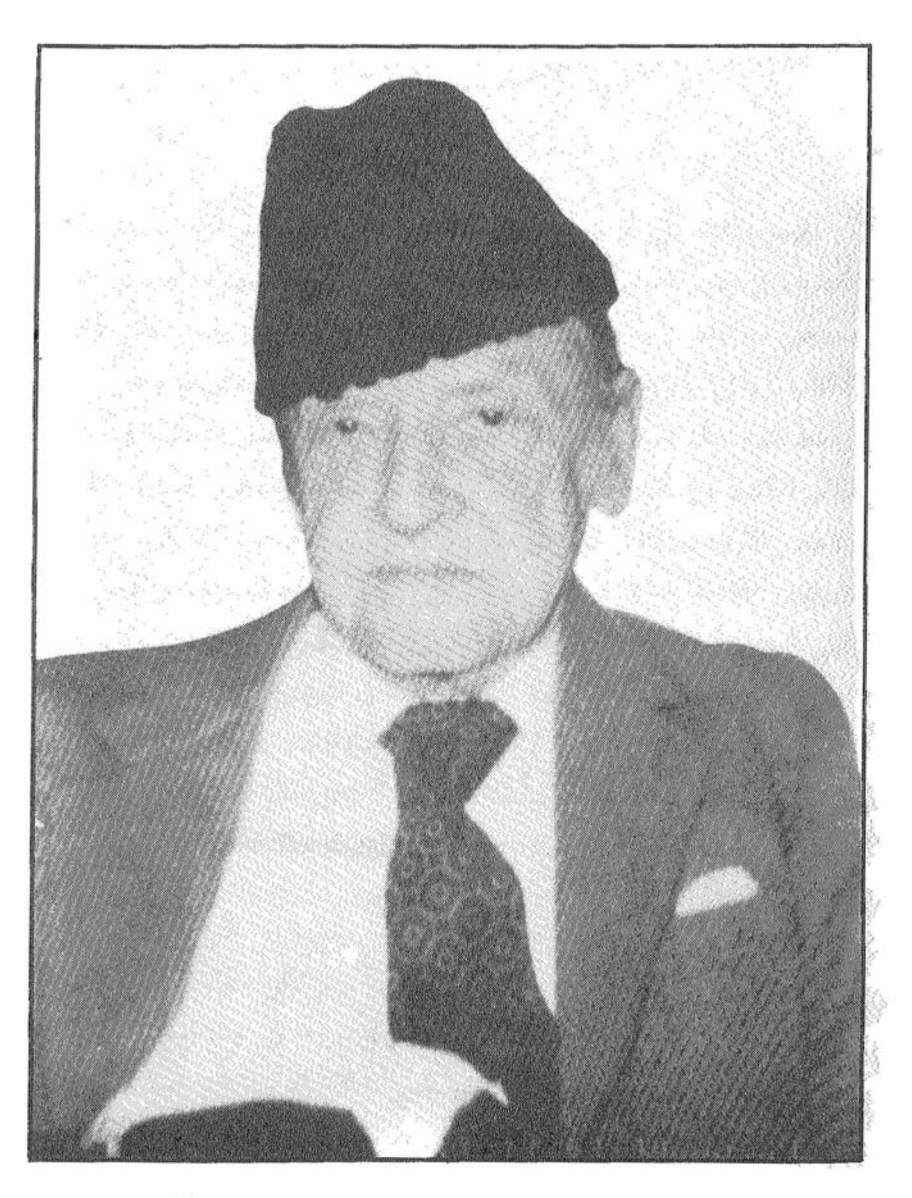
الطبعة الأولى
١٩٨١م - ١٤٠١هـ

الناشر

تهامة

جدة - المملكة العربية السعودية

ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤



وليام سومرست موم

مقـــدّمة

يجمع النقاد على أن ويليام سومرست موم ، هو أعظم من كتب القصة القصيرة فى القرن العشرين . ولكن هذا لا يتعارض مع شهرته الواسعة ككاتب مسرحى ، وكاتب رواية من الطراز الأرفع فى هذا القرن . وقد يعلل لنجاحه ككاتب روائى بأنه، وقد عاش ألوانا من التجارب ، منذ طفولته وحتى ما بعد أواسط عمره ، قد استفاد من هذه التجارب واستثمرها أفضل استثمار فى أعماله ، فكأن الكثير من هذه القصص والروايات ، تصوير وتسجيل لسيرته الذاتية . وطبيعى ألا يتردد كاتب كسومرست موم ، ظل منذ أيام صباه الباكر ، يتطلع الى أن يمتهن الكتابة وحدها دون أى مهنة أخرى ، فى أن يستجيب لمشاعر الأسى والألم التى استفزتها ذكريات طفولة ويفع لفعها الكبت والتربية الصارمة ، بعد أن أصبح يتيما فى العاشرة من عمره ، وكفله عمه فى انجلترا ، وهو قسيس يعيش فى مسكن منعزل موحش ، ثم فى ما يسمى (مدرسة الملك) بأسوارها العالية التى جعلت موم يشعر دائما كأنه فى أحد السجون . وعن هذه الفترة من حياته كتب واحدة من أشهر رواياته (عبودية الانسان) **(Human Bondage)** .

وينحدر موم من أسرة لا تنقصها العراقة ، ولعلها لم تكن من الأسر الفقيرة المحرومة ، ولذلك فإن معاناته تحت كفالة عمه ، لم تكن معاناة العوز والفاقة ، وانما هى معاناة التربية الصارمة التى لا يتوقع غيرها فى بيت قسيس . وكان مما أضاف إلى متاعبه فى بيت هذا القسيس ، إنه كاه قد ولد فى فرنسا ، حيث كان أبوه مستشارا قانونيا أو محاميا للسفارة البريطانية فى باريس ، ومع أن والده عنى بتعليمه الانجليزية ، إلا أن الفرنسية كانت هى اللغة التى يجيدها بحكم النشأة والبيئة التى ظل يعيش فيها الى العاشرة من عمره ، ولذلك فإن ضعفه فى اللغة الإنجليزية ، وهى طبعا اللغة التى يدرس بها مقررات (مدرسة الملك) ذات

الأسوار العالية ، قد جعلته يبدو عاجزا عن ملاحقة أقرانه ، بل بلغ الأمر بالمدرسة أن اعتبرته (متخلفا) عقليا ، وعلى الأخص بحالة (الفأفأة) التى كان يقاسى منها ، ربما نتيجة لضعفه فى اللغة الإنجليزية ، أو نتيجة للقسوة والصرامة التى يعامل بها فى بيت عمه القسيس ، وفى المدرسة على السواء .

والعجيب ، أنه ظل ـ حتى فى سن اليفع ـ لا يتطلع الى أن يكون فى مستقبله شيئا غير (كاتب) ... كانت أمنيته أن يكون كاتبا ، وأن يتعلم كيف يكتب ..؟ ولكن عمه القسيس يرفض مثل هذه الأفكار ، بل ويستنكرها ، ويصر عليه أن يتعلم (مهنة) ... أى مهنة ـ الى أن اختار له وحمله على أن يلتحق بكلية الطب ... ولم يكن فى وسع موم أن يرفض ، فتعلم الطب وتخرج بعد ست سنوات طبيبا ، ولكنه لم يمارس هذه المهنة ، إلا مدة التمرين **(Entern)** .

وما كاد يفرغ من مدة التمرين ، حتى غادر إنجلترا إلى فرنسا ، وإلى جنوبها بالذات حيث عاش فترة قصيرة التماسا للشفاء من شبهة مرض السل ، ثم انتقل إلى باريس ، حيث عاش طيلة عشر سنوات ، يكتب ، ويحاول أن يشق طريقه للظهور ككاتب ... وكان أول ما نشر له عام ١٨٩٧ كتابه **(Liza of Lambeth)** ، كما كانت أول مسرحية ظهرت له سنة ١٩٠٣ م هى مسرحية **(Man of Honour)** حيث ذاق لأول مرة حلاوة نجاحه فى المهنة التى اختارها وكرس كل جهده لإتقانها . وكانت مسرحيته (ليدى فريدريك) التى ظهرت سنة ١٩٠٧ م بداية قوية للنجاح الذى أخذ يتلاحق ، حيث كانت سنة (١٩٠٨ م) تشهد مسرحياته الأربع (ليدى فريدريك) و (جاك سترو) ، و (مسز دوت) ، و (اكسبورتر) .

فى سنة ١٩١٥ م نشر روايته (عبودية الانسان) وهى من أشهر أعماله ، وفيها تسجيل يكاد يكون أمينا لشريحة من سيرة حياته فى بيت عمه القسيس ، وفى مدرسة الملك . وظل انتاجه فى الرواية والمسرحية والقصص القصيرة يتلاحق ويتدفق بعد ذلك بغزارة وقوة ، وقد استتبع ذلك ـ بطبيعة الحال ـ تهافت دور النشر ، والمسارح على أعماله ، ليس فى انجلترا فقط وإنما فى جميع أنحاء العالم .

والقصة القصيرة التى يجدها القارىء فى هذه المجموعة التى أقدمها من قصصه بعنوان (أمطار) لها قصة طريفة .. فقد حدث عندما كان موم فى قصره فيلا (Mauresque) فى نيس ، أن زاره مخرج أمريكى من أصدقائه ، فاستضافه موم ، فى قصره ، لبضعة أيام ، وبعد أن قضيا معا وقتا طيبا بعد تناول طعام العشاء ، وحان وقت النوم ، طلب المخرج من موم أن يعطيه أى مادة يقرأها قبل أن ينام ... فقال له موم : عندك المكتب هناك ، إذا فتحت الدرج الثالث ، ستجد حفنة من القصص التى لم تنشر بعد ، اقرأ منها ما تشاء . وحدث أن كانت القصة التى قرأها فى تلك الليلة ، هى (أمطار) ... ولم ينم المخرج ليلتها قبل أن يفرغ منها .. وما كاد يرى موم فى الصباح حتى ألح عليه أن يخرجها للمسرح ـ وإن كانت قصة قصيرة .. ـ ووافق موم .. وأعدها المخرج للمسرح ، فظلت تمثل فى مسارح لندن ، وأمريكا واستراليا وكندا طيلة أربع سنوات على التوالى .

وهى قصة يمكن أن يقال أن موم نظر فيها الى قصة لأناتول فرانس هى (تاييس) ، إذ الموضوع أو الشخصية المحورية فى القصتين يكاد يكون متماثلا .. فى القصتين راهب ينتهى الى الزيغ والتمرد ، بفارق أن راهب قصة موم ينتحر ربما تكفيرا عن خطيئته ، بينما راهب قصة أناتول فرانس يجدف ويكفر ، وتتغير سحنته ليظهر بوجه شيطان .

ولا يعيب موم أن يكون قد نظر الى قصة أناتول فرانس ، إذ عالج نفس الموضوع بأسلوب يختلف تماما ، واختار له أجواء جنوب شرقى آسيا ، حيث قام موم برحلات الى تلك الأصقاع فى عمله الذى لا ينكره ـ وهو التجسّس ـ لحساب الاستخبارات البريطانية .

ويمكن أن يعتبر موم ، مثالا لما يمكن أن يحققه الأدب من النجاح فى بلد كانجلترا ، إذ نجده فى فيلا (Mauresque) فى نيس ، وحوله أكثر من سبعة من الخدم ، وأكثر من أربعة يعنون بالحديقة الرائعة ، وفى رفقته سكرتير وصديق قيل عنه إنه مثال فريد للإخلاص إذ ظل يعنى بموم ، وبجميع شؤونه الى أن توفى بعد التسعين من العمر ، كما نجده يتحدث عن رصيد يتجاوز المليون أو المليونين فى البنوك . ويعيش مستوى من المعيشة يعجز عنه كبار الأثرياء والوجهاء .

ومع ذلك ، ـ بالنسبة للمال ـ فإن له كلمة لاذاعة مشهورة إذ يقول : (النقود هى الحاسة السادسة التى لا تستطيع أن تتذوق الحواس الخمس الأخرى دونها) .

حياة موم ، وقصة نجاحه ككاتب ، حافلة بالكثير المشوّق الذى لا تكفى فيه هذه الكلمة القصيرة ولعل كتابه (The Summing Up) الذى يتحدث فيه عن مسيرته فى مهنته ، وعن أسرار المهنة وبالأخص عن القصة ، واحد من الكتب النادرة ، التى يتهافت عليها كل من يريد أن يمارس كتابة القصة بنجاح . فعسى أن يجد من ينقله الى اللغة العربية ، والى عشاق القصة وكتابها فى العالم العربى .

جدة فى ١٣٩٩/١١/٢٢هـ

عزيز ضياء



زوجته الشاعرة

زوجة الشاعرة

كان الكولونيل (بيريجرين) وزوجته يتناولان طعام فطورهما فى الصباح . . ومع أنهما كانا منفردين ، والمائدة طويلة ، فقد جلس كل منهما فى إحدى النهايتين المتقابلتين منها . وكان أجداد بيريجرين يطلون عليهما من اللوحات المعلّقة فى الجدران ، وقد رسمهم فنّانون معروفون .

ودخل كبير الخدم ببريد الصباح ، وفيه عدة رسائل للكولونيل ، وجريدة التايمس ، ثم طرد باسم زوجته : (ايفى) ، وبعد ان القى نظرة متعجلة على رسائله فتح الجريدة وشرع يتصفحها كعادته كل يوم . . واذ فرغا من الفطور ، ونهضا عن المائدة ، لاحظ أن زوجته لم تفتح الطرد الوارد باسمها ، فسألها :

ـ ما ذاك ؟ ؟

ـ بضعة كتب

ـ هل أفتح لك الطرد ؟

ـ إذا شئت .

وكان يكره ان يقطع الحبل الذى تحزم به الطرود فى العادة ، ولذلك فقد بذل شيئا من الجهد لحل عقده ، وعندما نشر ماأنطوى عليه قال :ـ

ـ ولكنها نسخ متعددة لكتاب واحد . . وما الذى تصنعينه بالله بست نسخ من كتاب واحد ؟

وفتح إحدى النسخ ، وماكادت عيناه تستقران على بضع صفحات من الكتاب ، حتى قال فيما يشبه الهمس : « شعر » ثم القى نظرة على الغلاف وقرأ : « عندما تتداعى الأهرام » بقلم : (ايه . . كيه . . هاميلتن) . . وردّد : « كاترين هاميلتن . . » وهذا هو اسم زوجته قبل ان تقترن به وتحمل اسمه ولقبه . . وبشىء من

العفوية التفت اليها بدهشة ضاحكة وقال :

ـ هل الّفت كتابا يا إيفى ؟ ؟ لعمرى إنك لماكرة حقا .

ـ ظننت إنه لايشوقك كثيرا . . هل تريد نسخة ؟ ؟

ـ حسنا .. وإنك لتعلمين أن الشعر ليس مجالى . . ولكن . . أجل . . أريد نسخة ، وسأقرأ شعرك يا إيفى . . بل سآخذه الى مكتبتى ، ولكن على أن أنجز الكثير من الأعمال هذا الصباح .

وجمع صفحات جريدة التايمس ، ورسائله ، ومعها الكتاب ثم خرج . . وكان مكتبه غرفة كبيرة مترفة ، فيها مكتب ضخم وجيه ، ومقاعد من الجلد ، وعلى الجدران بما اعتاد ان يسميه (تذكارات) الصيد والقنص ، معلقة على الجدران . . واما الرفوف فقد امتلأت بكتب المراجع ، ومنها : كتب عن الزراعة ، وفلاحة البساتين ، والصيد ، ثم مجموعة الكتب التى صدرت عن الحرب العالمية الأولى ، التى فاز فيها بوسامين هما (أم . سى ، ودى . اس أو) حيث كان قبل زواجه من ضباط الحرس فى ويلز ، وقد تقاعد عند انتهاء الحرب ، واستقر يستقبل حياة سيد من سادة الريف فى القصر الواسع على مبعدة عشرين ميلا من شيفيلد ، وهو قصر كان مما بناه أحد اجداده على عهد الملك جورج الثالث ، واذ كان يملك أرضا زراعية مساحتها الف وخمسمائة هكتار ، فقد تفرغ لها ، واستطاع ان يديرها بكفاءة ونشاط ولأنه قد اختير قاضياً للصلح فى منطقته ، فقد كان يؤدى واجباته فى هذا المنصب بضمير حى ، ونزاهة دقيقة ، كما كان يخرج للصيد فى موسمه يومين فى كل اسبوع ، وكان صيادا بارعا ، ولاعب (جولف) ممتازا . ومع أنه قد تجاوز الخمسين من عمره فهو مايزال قادرا على أن يمارس لعبة التنس ، ولكل ذلك فانه لايجد حرجا فى أن يصف نفسه بأنه يجيد جميع الأنشطة الرياضية وما يزال يمارسها باتقان .

صحيح أن وزنه قد بدأ يزداد فى السنوات القليلة الماضية ، الا أنه مايزال يحتفظ لجسمه بجماله كرجل رياضى نشط . وهو طويل القامة ، وخط الشيب شعر رأسه الجعد وقد بدأ يخف عند الجبهة قليلا . . له عينان صافيتا الزرقة ، ولاتخلو قسماته من جمال . . فى لونه وضاءة . . وصفاء وتورد . . وكان رجلا اجتماعيا يرأس كثيرا من مؤسسات البر والخير . وهو بحكم طبقته ومكانته فى المجتمع ، عضو مخلص من اعضاء

حزب المحافظين . وكانت نظرته الى مايقوم به من أعمال البر فى منطقته نظرته الى واجبات لامفر من ادائها ، وكان مما يرضيه ويشيع فى نفسه مشاعر الدعة والارتياح ، انه يستطيع الإعتماد على زوجته فى العناية بالمرضى وتفقد احوالهم ، ومواساة الفقراء . . وبهذه الروح المفعمة بالرغبة الصادقة فى عمل الخير ، بنى مستشفى صغيرا فى احد اطراف القرية ، وهو يدفع اجر الممرضات اللائى يعملن فيه من جيبه الخاص ، دون ان ينتظر من سكان المنطقة شيئا اكثر من أن يصوتوا لمن يرشحه هو فى البرلمان . . وكان ، مع كل ذلك ، رجلا ودودا ، عطوفا على جيرانه ومعارفه ، ويسره دون شك ـ وربما يربكه نوعا ـ ان يسمع من يقول عنه : إنه رجل طيب ، لطيف المعشر . . ولعله لم يكن ينشد اويطمح الى اكثر من ذلك فى علاقته بالناس . .

وهو لايجهل ان من سوء طالعه انه لم يرزق من زوجته أطفالا . . ويرجح لديه انه لو انجب لكان أبا رائعا ، لطيفا لاينقصه الحزم ولعنى بأن ينشئهم كما ينشأ أبناء اى (جنتلمان) من طبقته ، فيدخلهم كلية (ايتن) ويعلمهم صيد السمك ، والقنص ، وركوب الخيل .

ويعلم ، اذ حرم من الإنجاب ان الذى سوف يرثه هو ابن أخيه الذى قتل فى حادث سيارة . . ويعترف أنه ليس ولدا رديئا ، ولكن أين هو من ذلك الأسد؟، ومابعد الفرق بينهما ، وقد زاد الطين بلة أن أم هذا الولد (الحمقاء) قد عهدت به الى مدرسة يختلط فيها الذكور بالإناث .

أما زوجته (ايفى) فقد كانت خيبة امل محزنة بالنسبة له . . لاشك أنها سيدة عريقة ، ولها نصيب من ثروة تخصها وحدها ، وهى تدير بيته بنجاح نادر ، كما كانت (مضيفة) موفقة ، وسكان القرية يحبونها كثيرا ، ولاينسى إنها كانت حين تزوجها مخلوقا صغيرا جميلا . . لها بشرة رقيقة كالمخمل ، وشعر بنى وجسم بديع التنسيق الى جانب أنها نشطة ، قوية البنية ولاعبة تنس لابأس باتقانها وخفة حركتها ، ولكنه لم يستطع أن يفهم لماذا لم تنجب له نسلا ؟ . ولقد ذوت الآن وذبلت بالطبع ، إذ هى توشك ان تبلغ الخامسة والأربعين من العمر ، وقد تغضنت بشرتها ودكنت ، وفقد شعرها حيويته وسحره ، وقد ضمرت وهزلت ، بل أصبحت نحيلة كالكركى . ومع انها كانت

دائما نظيفة انيقة الهندام ، غير انه لايبدو أنها تهتم بما فيه الكفاية بما تكون عليه هيئتها ومظهرها إذ كفت عن استعمال المساحيق والألوان وأحمر الشفاه على أنها ـ فى بعض الأحيان ـ عندما يكون عليها أن تشترك فى حفلة ، ويخطر لها أن تتزوق وتعتنى بزينتها قليلا ، فإن من يراها يستطيع أن يحكم بأنها كانت ـ فى يوم ما ـ فاتنة وجذابة الى حد كبير . ولكنها ، كانت فى المعتاد من مظهرها ، من نوع النساء اللائـى لايستلفتـن الأنظار . . امرأة لطيفة بالطبع ، وزوجة طيبة دون شك ، ولاسبيل الى اعتبارها مسؤولة عن عقمها ، ولكن ـ مع ذلك ـ لايخلو الأمر من قسوة على مشاعر رجل يتمنى وريثا من صلبه . . اما مايعتبره مشكلته معها بالنسبة لشعوره نحوها فهو انها كانت تفتقر الى الحيوية والإيجابية المرحة ، وانطلاق الروح والسجايا افتقارا شديدا . . وقد كان يظن عندما تقدم لطلب يدها أنه يحبها ، أو أنه ـ على الأقل ـ يحبها ذلك الحب الـذى لا غنى عنه لرجل يريد أن يتزوج وأن يستقر . . ولكن بمرور الأيام اكتشف انه ليس بينهما ما يقارب ويوشج العلاقات بين الزوجـين من التوافـق فى الأذواق والهـوايات والميول . . فهى لم تكن تهتم بالقنص ، وكان صيد السمك يضايقها ويسئمها . .

فكان من طبيعة الأمور أن يتباعدا . ومع ذلك ، فهو ينصفها فيسلم بينه وبين نفسه ، بأنها لم تتسبب فى مضايقته قط ، ولم يقع بينهما مايمكن أن يعتبر مشهدا من مشاهد الشجار الصاخب والمتوتر التى تقع فى العادة بين الزوجين . . بل هو لايذكر أنهما قد تشاجرا قط . . ولذلك فقد كان الأرجح لديه أنها تعتبر انصرافه عنها ، وسلوكه الطريق التى تطيب له دون مضايقة من جانبها ، أمرا خليقا بارتياحها وامتنانها ، فهى لم يحدث أن تشبثت ، أو حتى حاولت ان تذهب معه الى لندن عندما ينطلق اليها بين فترة وأخرى . . وكانت له هناك فتاة ، واذا أردنا الدقة لم تكن هذه فتاة بالمعنى المفهوم ، وإنما هى امرأة فى الخامسة والثلاثين من العمر ، ولكنها شقراء ، جميلة غنجة ، ولم يكن عليه ليلقاها الا ان يبرق اليها بالموعد فيتناول معها الغداء ، ويقومان بجولة فى الحدائق والمتنزهات ، ثم . . يقضيان الليل معا . . وفى نفسه مايبرر سلوكه ، فهو رجل يتمتع بالصحة والنشاط والحيوية ، ولذلك لامندوحة لحياته عن شيء من العبث والمتعة . . وكان يلوح له ان زوجته لو لم تكن امرأة بهذه الطيبة والنقاء وهدوء أو اعتدال السلوك ، لكانت أفضل مما هى الآن كزوجة ، ولكن لم يكن ليرحب أو يطيل الوقوف عند فكرة كهذه ، ولذلك فسرعان مايستبعدها عن ذهنه .

وإذ فرغ من قراءة التايمس ، وهو رجل يلتزم الإنصاف الدقيق مع زوجته ، فقط ضغط زرّ الجرس ، ودفع بعدد التايمس الى خادمه الخاص وأمره أن يحمله اليها ثم القى نظرة على ساعته ، وكانت منتصف الحادية عشرة ، ووجد أن لديه نصف ساعة أخرى الى أن يحين موعده مع أحد مستأجرى أرضه ، فهجس فى نفسه أن يلقى نظرة على كتاب (ايفى) .

والتقط الكتاب مبتسما . . وكانت ايفى ـ فى الواقع ـ تحتفظ أو تجمع أكداسا من الكتب فى غرفتها ، ولكنها ـ كلها ـ ليست من النوع الذى يشوقه . ولكن مادامت زوجته تجد فيها مايروّح عنها ويسلّيها ، فليس لديه مايمنع ان تقرأها .

ولاحظ أن الكتاب الذى يحمله الآن بين يديه ، لم يكن يجمع بين دفتيه اكثر من تسعين صفحة ، فاحتسب ذلك حسنة للكتاب ، إذ هو ممّن يشاركون ادرجارالان بو رأيه فى ان قصائد الشعر يجب أن تكون قصيرة . . ولكن حين أخذ يقلّب صفحات الكتاب لاحظ ان عددا من المقطوعات كان من البحور الطويلة ، وان بعضها مسرف الطول بل ومكسور الوزن . ولم يكن بطبيعته يحب هذا النوع من الشعر . . وذكر انه حين كان صبيا صغيرا فى اول مدرسة قد دخلها ، قد حفّظوه مقطوعة مطلعها :

وقف الطفل فوق سطح سفين .:. يتلظّى والبحر غضبان ثائر

ومقطوعة اخرى حفظها فى (ايتن) ومطلعها : (الهلاك والدمار . . للظالم الجبّار) وثالثة من تمثيلية شيكسبير (هنرى الخامس) وكل أبياتها أقصر من هذه التى يقرأها من شعر زوجته . . فأخذ يحدّق فى الصفحات أمام عينيه فى دهشة وعجب ثم قال لنفسه : « لا . . ليس هذا ما أسميه شعرا » .

ولحسن الطالع لم تكن جميع المقطوعات من هذا النوع ، إذ كان يتخلل المقطوعات التى بدت له سخيفة مملّة مترهّلة الجرس ، بضع أبيات لاتزيد كلمات كل منها عن ثلاث أو أربع فقط . . تليها ابيات تزيد كلماتها عن العشر أوالخمس عشرة كلمة ، بينما كانت هناك مقطوعات قصيرة ، سليمة الوزن ، ولكن جميع أبياتها من بحر واحد ، واكثر المقطوعات تحمل عنوان (سونت) واستبد به الفضول فراح يعد أبياتاً

واحدة من هذه ، فوجدها أربعة عشر بيتا . . قرأها ليقول انها : « لابأس بها » . . .
ولكنه لم يستطع ان يدرك شيئا من الموضوع الذى تدور حولـه ، فردّد لنفسـه من (المحفوظات) التى ماتزال عالقة بذاكرته : « الدمار . . الدمار . . يعصف بالظلم ، ويهوى بكل طاغ عسوف » واخيرا ، أفرغ صدره من آهة وهو يقول :
ـ مسكينة . . ايفى . .

وفى هذه اللحظة ، كان المزارع الذى ينتظره قد ادخل المكتب ، فنهض خفيفا يرحّب به وهو يضع الكتاب جانبا ، ثم استغرق معه فى الشؤون التى كان موعد اللقاء بينهما قد حدّد لمناقشتها .

وحين جلس مع زوجته لتناول الغداء فى الظهيرة ، قال لها :
ـ لقد قرأت كتابك يا ايفى . . وإنه لممتع لطيف . . فهل كلفك طبعه كثيرا ؟ ؟
ـ كلاّ . . فقد كنت محدودة الحظ . . اذ بعثت به الى ناشر فاشتراه .
ووجد نفسه يعلق بهدوء ، وفى اسلوبه الودود المتلطّف :
ـ ما أقل مايجدى الشعر كتّابه فى هذه الأيام .

ـ فعلا . هو ذاك . . ولاتحسبنى سانتظر من كتابى عائدا ما . . ولكن لم تقل لى ماذا كان يريد (بانوك) من مقابلتك هذا الصباح ؟ ؟

وكان (بانوك) هذا هو المستاجر الذى قطع على جورج بيريجرين قراءته لكتابها فاجابها يقول :
ـ يرجونى ان أقرضه مالا ليشترى ثورا أصيلا .. والحق انه رجل طيب . . وأحسبنى سأجيبه الى طلبه .

وأحسّ بيريجرين أن زوجته زاهدة فى أن يتحدث عن كتابها . . ولم يكن يؤسفه كثيرا أن يغيرّ الموضوع . وقد أرضاه انها قد استعملت اسمها قبل زواجه منها على الغلاف وإن كان لم يدر فى خلده ، أن يسمع احد بالكتاب حتى مجردّ سماع . . وكان مزهوا بطبعه بأسلوبه النادر فلم يكن ليسعد اويسر لو أن احد الكتاب المأجورين ، استلهم كتاب زوجته موضوعا للسخرية به أو التهكم عليه فى الصحف .

وخلال الأسابيع القليلة التالية وجد بيريجرين أن من اللياقة ألا يوجه الى زوجته أى سؤال عن صدى الشعر الذى غامرت بنشره ، كما أنها هى من جانبها لم تشر أوتتطرق الى الموضوع قط . فبدا له ان المسألة لايجب ان ينظر اليها على أنها أكثر من حادث مؤسف عابر ، اتفقا فى صمت ، على عدم نبش ذكراه إطلاقا .

ولكن حدث فى نهاية رواق الصمت هذا شيء غريب ، حين ذهب الى لندن لقضاء عمل من أعماله وكالعادة اصطحب هناك (دافنى) وهى الفتاة التى يقضى معها بعض الوقت كلما ذهب الى لندن ، وعلى مائدة العشاء فاجأته الفتاة حين قالت :

ـ اوه . . قل لى ياجورج . . هل هى زوجتك التى نشرت كتابا يتحدّث عنه جميع القراء فى لندن ؟ ؟

ـ ماذا ؟ ؟ ماذا تقصدين بالله ؟ ؟

ـ حسنا . . هناك شخص من النقاد أعرفه ، وقد اصطحبنى للعشاء ذات ليلة ، وكان يحمل معه كتابا ، لست أدرى كيف سألته عنه ، وعما إذا كان ينوى أن يهدينى اياه فإذا به يقول : « اوه . . كلا لا أظن هذا مما يصلح لك . . انه شعر أدرسه لأقوم بتحليله وتقريظه » . وحين مازحته قائلة : « أما تهدينى شعرا ؟ ؟ » قال : « إنه عن موضوع مثير جدا . . لم اقرأ مثله قط حرارا وقوة نبض بالحيوية وأن الكتاب ليلقى من الرواج وتزاحم الطلب عليه مايلقاه الكعك الساخن . . وتالله ، إنه لكتاب جيد .

وسألها بيريجرين : ومن هو مؤلف هذا الكتاب ؟ ؟

ـ امرأة اسمها (هاميلتن) وقد قال صديقى الناقد ، انه ليس اسمها الحقيقى . . اسمها فى الواقع (بيريجرين) وحين قلت : « ياللعجب انى أعرف شخصا اسمه بيريجرين قال لى الناقد : « انه كولونيل فى الجيش ، ويعيش بالقرب من شيفيلد

وقال بيريجرين ممتعضا فى عبوس :

ـ عسى ألا تكونى قد استرسلت فى التحدث الى أصدقائك عنى .

ولكن دافنى أسرعت تقول : « هوّن عليك ياعزيزى . . من تظنّنى ياترى ؟ ؟ لقد قلت له على الفور : « إنه ليس الشخص الذى أعرفه » .

وقال بيريجرين :

ـ تستطيعين أن تقولى خيرا من هذا . . لو أن زوجتى الّفت كتابا لكنت أنا أول من

يعلم . . أليس كذلك ؟ ؟

ـ أعتقد أن هذا هو الصحيح

على أية حال لم يكن الموضوع مما يشوق الفتاة أن تتابعه . وحين شرع الكولونيل يتحدث فى مواضيع أخرى ، نسيت كل شيء عنه ، وهو نفسه أزاحه عن تفكيره ، باعتباره أمرا لاينبغى له أن يأبه به . . أما ذلك الناقد الأحمق فالأرجح انه لم يكن يفعل شيئا اكثر من انه يستدرج الفتاة علها تفضى بما لديها عن (بيريجرين) إذا كانت تعرفه كما قالت . . وقد أضحكته فكرة أن تقدم (دافنـى) على قراءة ذلك الكتاب لأن الناقد قال لها شيئا عن قوة نبضه بالحيوية ، اذ لو قرأته لوجدت أنه هذر فارغ ، وثرثرة ناضبة مجزأة فى أبيات أو سطور لاوزن لها ولاتناسب بين أطوال بحورها .

وكان بيريجرين عضوا فى عدد من الاندية ، وخطر له ـ وهو فى لندن ـ فى اليوم التالى أن يتناول غداءه فى احدها فى شارع سانت جيمس وكان عليه أن يلحق بالقطار الذى ينقله الى شيفيلد ، فى الساعة الأولى من بعد ظهر ذلك اليوم . وجلس يتناول كأسا من (العصير) على مقعد مريح ترف قبل ان يدخل غرفة الطعام ، وقبل أن يفرغ من كأسه ، تقدم اليه أحد أصدقائه القدماء وهو يهتف :

ـ حسنا . . . حسنا . . أيها الولد العجوز . . كيف الحياة معك يارجل ؟ ؟ وجدت نفسك ، وقد أصبحت زوجا لامرأة ذائعة الصيت .

ونظر بيريجرين الى صديقه وقد لاح له انه يرى فى عينيه التماعة تشف عن سرور متخابث فقال :

ـ لست أدرى عماذا تتحدث ؟

ـ دعك من هذا ياجورج . . لم يعد احد يجهل ان (ايه . . كيه . . هاملتن) هى زوجتك . . والحق ياصديقى . . نادرا مايحظـى كتـاب شعـر بمـا يحظـى به كتـاب زوجتك . . واسمع . . ان هنرى داشوود يتغدّى معك ، وانّه ليسعد ويسر اذا أتيح له أن يلقاك .

ـ ولكن اى شيطان هو هذا الـ(هنرى داشوود)؟؟ ولماذا يسره ويسعده ان يلقانى ؟ ؟

ـ اوه ياصديقى العزيز . . ماذا تفعل ببقائك كل الوقت فى الريف ؟ . هنرى يكاد يكون أبرز النقاد فى هذه الأيام . . ولاأظنك قرأت ماكتب عن كتاب ايفى . . لقد كتب الرجل أروع تقريظ . . هل تقصد أن تقول انها لم تطلعك عليه ؟

وقبل أن ينبس جورج بجوابه ، هتف صديقه ينادى رجلا . . رجلا طويلا نحيلا ذا جبهة مشرقة عالية ، ولحية. . . وانف طويل . . نفس النوع من الرجال الـذى يبغضه جورج من النظرة الأولى ، وبعد ان تبودلت عبارات التعارف المألوفة جلس داشوود وهو يقول :

ـ هل مسز بيريجرين فى لندن لمناسبة ما ؟ ؟ كم أود أن أقابلها

وأجاب بيريجرين فى فتور :

ـ كلا . . . زوجتى لاتحب لندن . . تفضل البقاء فى الريف دائما

فقال داشوود :

ـ الواقع انها قد كتبت الى رسالة لطيفة ، عن تقريظى الذى نشرته عن كتابها ولقد سررت . . لأننا معشر النقاد ـ كما تعلم ـ ينالنا من اللكمات اكثر مما ينالنا من الرضى والتكريم . . ولكن كتابها هزمنى . . هزّنى وضعضع قواى . . لكم هو جديد وأصيل ، بل وعصرى فى غير غموض . . وانها لتملك ناصية الشعر الحر ، ومع ذلك فهى لاتفلت زمام الأوزان التقليدية . ثم قد يهتز انسياب النغم فى ادائها قليلا فينشز عليها الوزن ، ولكنك تستطيع ان تقول نفس الشيء عن ايميلى ديكنس أيضا . . وبين مقطوعاتها الغنائية القصيرة ، ماينم عن تأثّرها بلاندر .

وكل هذا الذى ظل يسمعه بيريجرين لم يكن اكثر من رطانة غريبة ، ولم يكن هذا الـ(داشوود) فى نظره اكثر من متبجّح سخيف وكريه . ولكن الكولونيل ، ظل مع ذلك هادىء الطائر ، رحب النفس ، وقد حرص على ان يجيب محدّثه فى كثير من التأدّب واللطف ، ولكن هنرى داشوود واصل حديثه ، وكأنّه لم يفرغ كل مافى جعبته بعد :

ـ ولكن مايجعل الكتاب ، رائعا ، بل ونادرا أيضا ، هو الانفعال العاطفى الجامح الذى يختلج ويرتعش فى كل بيت . . إن كثيرا من شعراء الشباب يغلب عليهم النضوب ، والفتور ، وشحوب العاطفة ، بل والتعقل البليد المترهّل . . أما هنا ، فإنك تجد انفعالات الجنس الحقيقية ، وقد تعرّت كما هى فى حقيقتها فى هذا العالم . وبالطبع فإن عاطفة كهذه ، عميقة ، مخلصة فى صدقها تعتبر حدثا أدبيا لاحدود لما فيه من روعة . . تعتبر انفجارا نادر المثال فى عالم الشعر . . ياصديقى الكولونيل العزيز ، لكم صدق (هينى) حين قال :

ـ إن الشاعر يصنع اغانيه الصغيرة من أحزانه الكبيرة . ولعلك لاتعلم انى كلّما قرأت

هذه السطور التى تمزّق القلب فى كتاب السيدة بيريجرين ، ولكم اقرأها ثم أعود الى قراءتها ـ انى اتذكّر سافو . .

وكان هذا اكثر مما يطيق بيريجرين ، فلم يسعه الا أن ينهض وهو يقول :
ـ حسنا . . إنه لشىء كريم ولطيف منك أن تقول شيئا لطيفا كهذا الذى سمعته منك عن كتاب زوجتى الصغير . . وانى لواثق ان ذلك يسرّها ولكن يجب ان أنطلق الآن ، إذ علىّ ان الحق بالقطار ، وأريد أن أتناول شيئا قبل الرحيل .

وهتف منفعلا ـ بينه وبين نفسه ـ وهو يصعد السلالم الى قاعة الطعام :
ـ ياللأحمق اللعين .

وفى موعد العشاء كان بيريجرين فى بيته . وبعد أن ذهبت زوجته الى فراشها أسرع هو الى مكتبه ، وأخذ يبحث عن كتابها ، وفى نفسه ان يلقى نظرة عابرة على مافيه مرة أخرى ليرى بنفسه ماجعل هؤلاء الحمقى يقيمون حوله كل هذه الضجة ولكنّه لم يجده ، ورجّح أن ايفى ربما كانت قد أخذته فتمتم :
ـ سخافة .

فقد قال لها حين أخذه منها : « انه كتاب جيد » وتساءل : ـ ماذا ينتظر أن يقول المرء أكثر من ذلك . . ولكن لاباس واشعل غليونه ، واخذ يقرأ كتابا بعنوان : (الحقل) الى أن غلبه النعاس .

وبعد أسبوع أو نحوه حدث أن كان عليه أن يدخل شيفيلد ، فتناول غداءه فى ناديه وكان يوشك أن يفرغ من طعامه ، حين دخل يتقدم اليه (دوق هافيرل) . . وهو من كبار الوجهاء أو أكبرهم جميعا فى شيفيلد ، وكان الكولونيل يعرفه ولكن فى حدود التحية الرقيقة المؤدبة فحسب ، وبهت الآن دهشة وهو يرى الدوق يقف الى مائدته ، وهو يقول فى حسن نية ، وبشىء واضح من التحفّظ :

ـ كم يؤسفنا ألا تستطيع زوجتك المجىء الينا فى عطلة نهاية الاسبوع ؟ .. إننا ننتظر عددا كبيرا من القوم .

وأذهلت المفاجأة جورج ، وحسب أن أسرة (هافيرل) قد دعته وزوجته لمشاركتهم عطلة نهاية الأسبوع ، وان ايفي ـ دون ان تقول له كلمة في الموضوع ـ قد رفضت الدعوة . وقد اسعفته بديهته بأن يقول : « آسف . آسف جدا »

فقال الدوق : « الى فرصة اسعد » ، ثم مشى

وغضب بيريجرين غضبا شديدا وعندما دخل منزله قال لزوجته :

ـ ماذا عن موضوع دعوتنا الى عطلة الأسبوع لدى اسرة هافيرل ؟ ؟ ما الذى جعلك تقولين اننا لانستطيع ان نذهب ؟؟ لم يحدث قط أن دعينا مثل هذه الدعوة وانها لأفضل صفقة فى الريف .

ـ لم يخطر لى ذلك ببال . . ولقد ظننت أن الأمر يضايقك .

ـ ياللّعنة . . كان يسعك ـ على الأقل ـ أن تسالينى عمّا إذا كنت أريد أن أذهب أم لا .

ـ آسفة . .

وتأمّلها عن كثب . . كان فى ملامحها شىء لم يستطع ان يفهم كنهه تماما ، فقطّب ثم انفجر فيما يشبه النباح : « أظنهم قد وجّهوا الدعوة الىّ .

فاحمر وجهها خجلا قبل أن تقول :

ـ حسنا . . ال . . الحقيقة انك . . انك لم تدع

ـ تلك خشونة وقلة أدب منهم ، ان يوجّهوا الدعوة اليك من دونى .

ـ أحسبهم قد ظنّوا ، ان الحفلة ليست من النوع الذى يلذ لك حضوره . . إذ ان الدوقة مغرمة نوعا بالأدباء والكتاب وامثالهم من الناس كما تعلم . . وهى تستقبل فى هذه الحفلة هنرى داشوود ، الناقد المعروف ، وهو من جانبه يريد أن يقابلنى لسبب من الأسباب .

ـ لقد أحسنت يا ايفى إذ رفضت الدعوة .

قالت وهى تبتسم : « انه اقل ماوسعنى أن أفعل » وترددت قليلا ثم استأنفت تقول :

ـ جورج . . ان ناشرى كتابى يريدون أن يقيموا لى حفلة عشاء فى يوم ما فى أواخر الشهر . . وبطبيعة الحال ، يريدون أن تحضر الحفلة أنت أيضا .

ـ اوه . . لاأظن أن ذلك مما يطيب لى . . ولسوف أصحبك الى لندن إذا شئت وهناك سأبحث عمّن يمكن أن أتناول معه العشاء .

ـ أتوقع انها ستكون حفلة باردة مملّة ، ولكنّهم مهتمون لها نوعا . . وفى اليوم التالى لحفلة العشاء سيقيم لى الناشر الأمريكى ، الذى اشترى حق نشر كتابى فى أميركا حفلة كوكتيل فى كلاريدج . . وانى لأحب أن تحضر هذه الحفلة اذا لم يكن لديك مانع ما .

ـ ستكون حفلة ثقيلة فاشلة فيما يبدو لى . . ولكن إذا كنت تريدين حقا أن أصحبك اليها فسأذهب .
ـ إنه للطف منك ياعزيزى ان تجىء .

وكانت حفلة الكوكتيل التى حضرها جورج بيريجرين شيئا أدهشه وبهر أنفاسه كان فيها خلق كثير لابأس ببعضهم ، وبعض النسوة كن وجيهات لائقات بالمناسبة ، ولكن الرجال ، كانوا بالنسبة لبيريجرين مخلوقات لاتطاق . . وكان يقـدّم لكل من يقابله على أنه : (الكولونيل بيريجرين ، زوج ايه . كيه . هاميلتن ، ولم يبد أن لدى الرجال مايقولونه له . . أما النسوة فقد كانت الكثيرات منهن يندفعن قائلات :

« ـ لاشك أنك مزهوّ فخور بزوجتك . . لكم هو كتاب رائع . . تصوّر . . لقد قرأته فى جلسة واحدة . . انى ـ ببساطة ـ لم أستطع أن أزفع نظرى عنه . وكنت عندما أفرغ منه ، أعود فابدأ قراءته مرة أخرى ثم ، مرة أخرى أيضا . . لقد هزّ مشاعرى ، وأشعل عواطفى ، وملأ نفسى طربا وإعجابا .

وحين رآه الناشر الانجليزى أسرع يقول : « اننا لم نلق نجاحا فى أى كتاب نشرناه عن الشعر ، خلال العشرين سنة الماضية ، كهذا النجاح الذى نلقاه فى هذا الكتاب . . إنى لم أر قط تقريظا وثناء من النقاد يضارع مايلقاه هذا الكتاب .
أما الناشر الأمريكى فقد قال : « إنه عاصفة . . زوبعة . . وسيكون انفجارا مدوّيا فى اميركا »
وأرسل هذا الناشر الى ايفى طاقة كبيرة من أزهار الأوركيد ، جعل جورج يهتف حين رآها ـ بينه وبين نفسه ـ « ياللمعتوه اللعين »

وحين دخل معها القاعة ، نهض القوم لها ، ومن الواضح أنهم كانوا يغمرونها بالكثير من عبارات الإطراء والثناء والإعجاب ، وكانت من جانبها تستقبلها بابتسامة لطيفة ، وبكلمة أوكلمتين تعبرّان عن الشكر . وكان الانفعال والتأثر بالحفاوة الحارةّ ، يبعثان فى قسماتها القليل من تورّد الخجل ولكنّها لم ترتبك أوتتعثّر قط . ومع أن جورج كان ينظر الى كل هذه الضجة نظرته الى شيء فارغ لامعنى له ، فإنه لم ينس أن يلحظ ان ايفى كانت تتقبل كل مايغمرها به القوم بالأسلوب اللائق حقا . وقال لنفسه : « حقا . . هناك شيء واحد . . ان المرء ليؤمن وهو يرى تصرفها إنها سيدّة حقا ، وان مرآها ليرجح بهاء ولياقة على كل من يراهم هنا . » .

وقد شرب بيريجرين الكوكتيل ، ولكن كان هناك شيء واحد أزعجه وضايقه حقا ، . . وهو أنه قد لاحظ أن بعض الذين قدم اليهم ، كانوا ينظرون اليه ويتأملونه بطريقة غريبة نوعا . . ولم يستطع أن يستنتج أو يفهم شيئا مما يقصدون . . وحين كان يمر أمام امرأتين تجلسان على أريكة معا ، طاف بذهنه أنهما كانتا تتحدّثان عنه ، وبعد أنَ خلّفهما وراءه ، تأكّد أنهما قد غالبتا ضحكة مكتومة .

وقد تنفس الصعداء عندما انتهت الحفلة أخيرا . . وفى التاكسى الذى اقلهّما الى الفندق الذى نزلا فيه تلك الليلة ، قالت له ايفى :

ـ لقد كنت رائعا ياعزيزى . . بل لقد كنت مفاجأة مذهلة . . كانت الفتيات يتزاحمن عليك إذ رأينك بالغ الوسامة والظرف .

ـ وأجـــاب بمــرارة :

ـ الفتيات !! تقصدين اولئك العجائز الشمطاوات

ـ هل كنت سأمان ياعزيزى ؟ ؟

ـ الى أبعد حد .

وضغطت يده فى حركة تودد وعطف ثم قالت :

ـ أرجو ألا يكون لديك مايمنع أن نتريّث فى لندن قليلا ، فنعود فى قطار بعد الظهر ، فإن لدى بعض المهام فى الصباح .

ـ إطلاقا . . ولابأس . . هل تنوين أن تشترى شيئا ؟ ؟

ـ أريد فعلا أن اشترى بعض مايلزمنى ، ولكن الأهم هو انى اريد أن آخذ لنفسى

صورة . . وانى لأكره الفكرة ، ولكن لامندوحة لى عنها ، إذ هى مالابد منه للنشر فى اميركا .

ولم يقل شيئا ، ولكنه فكر . . فكر فى أنها ستكون مفاجأة للجمهور الامريكى حين يرون صورة هذه المرأة الساذجة التى صوّحت وذبلت ، وعادت كالغصن اليابس فى الصقيع . . وكان يعتقد دائما ان القوم فى اميركا يعجبون بالفتنة والرواء . . وظل يفكر على هذا النحو . . ثم فى صباح اليوم التالى ، حين خرجت ايفى لشأنها ذهب هو الى ناديه وقصد توا الى المكتبة ، وهناك طالع آخر أعداد الصحف ، ومنها الملحق الأدبى للتايمس ، والـ(نيوستيتسمن) والـ (سبكتاتور) ، حيث وجد فيها ـ كلها ـ مقالات عن كتاب ايفى . ولم يقرأ شيئا منها بما ينبغى من اهتمام وعناية ، ولكنه اكتفى بأن فهم انها كلها تفيض إعجابا بالكتاب . . وعندئذ ذهب الى محل لبيع الكتب حيث تعود أن يشترى منه كتبه بين فترة وأخرى . وقد قرر ان يقرأ هذا الشيء اللعين الذى أخرجته ايفى بامعان . ولكنه لم يشأ أن يسألها عما فعلته بالنسخة التى كانت أهدتها اليه . فضّل ان يشترى نسخة خاصة به . . وقبل أن يدخل المحل ، القى نظرة على (الفترينة) فكان اول شيء رآه هو عرض عن كتاب (عندما تتداعى الأهرام) . . . ياللعنوان السخيف . . قال هذا . . ثم دخل فخف اليه شاب يسأله عن الخدمة التى يستطيع أن يقدمها اليه . وقد أربكه أن يسأل عن كتاب ايفى . . وفضّل أن يتوخّاه بنفسه ثم يأخذه الى البائع ، فقال يجيب الشاب : « كلا لاشيء . . وانما أريد أن القى نظرة على ما لديكم » . . ولكنه لم يستطع ان يجد الكتاب فى اى مكان . . وأخيرا التفت الى الشاب الواقف بالقرب منه وقال فى نبرة عنى بأن يجعلها تبدو ، وكأن سؤاله قد خطر له اتفاقا ودون قصد سابق :

ـ بهذه المناسبة ، هل عندكم كتاب يسمى (عندما تتداعى الأهرام) ؟؟
ـ الطبعة الجديدة ياسيدى وصلتنا هذا الصباح . . وسآتيك بنسخة .

وعاد الشاب بالنسخة فى لحظات ، وكان شابا قصيرا ممتلىء الجسم نوعا ذا شعر أصفر وعلى عينيه نظارات ، بينما كان بيريجرين طويلا منتصب القامة عسكرى الوقفة والقوام ، فالقى على الشاب نظرة من علٍ وهو يقول :

ـ هل هذه طبعة جديدة ؟ ؟
ـ أجل ياسيدى ، وهى الخامسة . .. وان الكتاب ليلقى من الرواج ماتلقاه الروايات الناجحة والقصص .

وتردد جورج بيريجرين لحظة ثم قال :
ـ الى ماذا يعزى نجاح هذا الكتاب فيما تظن ؟ ؟ الذى أعلمه أن أحدا ما لايقرأ الشعر فى هذه الأيام .

ومع أن الشاب كان على جانب واضح من الثقافة ، فقد كانت فى حديثه لهجة أبناء لندن . وسرعان مااتخذ جورج بغريزته موقف العميل حين قال الشاب :
ـ إن الكتاب جيد ياسيدى . وقد قرأته بنفسى . . فيه القصة التى يحبها الكثير من الناس .

وقطّب جورج حاجبيه قليلا . . وكان يوشك ان يستنتج أن الشاب على شىء من الوقاحة ، إذ لم يسبق أن قال له احد قط أن فى هذا الكتاب قصة . وهو نفسه لم يستطع أن يدرك شيئا من هذا القبيل ، وهو يقرأ بعض التقاريظ التى كتبها النقاد عنه ، وواصل الشاب حديثه قائلا ؛
ـ إنه فى الواقع ليس اكثر من قصة فشل ، إذا كنت تعرف ما أعنى . . ورأيى أنها كتبته بوحى من تجربة شخصية . . وأعتقد أنها لن تكتب شيئا آخر بعده وقال بيريجرين فى برود ، محاولا أن يطفىء جذوة الثرثرة التى اندفع اليها الشاب :
ـ وبكم الكتاب ؟
ثم أردف وقد دفع الثمن :
ـ لاحاجة بك الى ان تلفه لى . . سأضعه فى جيبى .

وكان صباح نوفمبر باردا رطبا ، يضطره أن يرتدى معطفا ثقيلا فضفاضا . . وفى المحطة اشترى صحف المساء ومجلاته . . واستقر مع زوجته فى ركنين متقابلين مريحين من عربة الدرجة الأولى ، وأخذ يقرأ . وفى الساعة الخامسة ذهبا الى عربة الأكل ؛ حيث تناولا الشاى معا ، وظلا يتحدّثان قليلا ، وحين وصلا ذهبا الى البيت فى السيارة التى كانت تنتظرهما واستحما واستعدا للعشاء ، وبعد أن فرغا منه قالت إيفى ، إنها تعبة

منهكة ثم ذهبت الى فراشها ، وقد قبلته كعادتها ـ على جبهته ـ وعندئذ ذهب هو الى الصالة ؛ حيث أخرج الكتاب من جيب معطفه ، وفى طريقه الى مكتبه بدأ يقرأه . . ولم تكن تسهل عليه قراءة الشعر ، ومع انّه شرع يقرأ باهتمام كل كلمة فيه ، فإن الصور والأفكار التى أخذت تتسللّ الى ذهنه ظلت غامضة . وعند ئذ بدأ يقرأ الكتاب من الصفحة الأولى للمرة الثانية . . وقرأ فى تمهّل وتمعّن متزايدين . . .

. . . وإذ لم يكن غبيا وقد فرغ من قراءته أخيرا ، تكونت لديه فكرة واضحة تماما عن الموضوع الذى يدور حوله الكتاب . كان جانب من الكتاب من الشعر المطلق ، والجانب الآخر مقفّى موزونا ، ولكن القصة التى ترويها الأبيات ، كانت واضحة بسيطة للغاية . . لاتخفى على أقل الناس ذكاء وقدرة على الفهم . .

كانت قصة حب عنيف بين امرأة علت بها السن ، وشاب . . وقد استطاع بير يجرين ان يحدّد مراحلها فى سهولة ، حتى كأنّه يقوم بعملية (جمع) بسيطة .

وقد بدأت القصة ـ والرواية فيها بضمير المتكلم ، يهتز لها كيان المرأة ، وقد تخطت سنى الشباب ، حين سطع فى حياتها فجر حب يكنه لها شاب فى مقتبل العمر . . وقد ترددت فى هذا الحب ، وتراءى لها أنها ربما كانت تخدع نفسها ، ولكم ذعرت وزلزلت حين اكتشفت أنها تحبه ، ولكم حدثت نفسها بأن الأمر كلّه سخيف مستهجن ، وبأن فارق السن بينهما سوف لن يتمخض عن شيء سوى الشقاء المرير اذا استسلمت لهذه العاطفة الجارفة . .

لقد قال صديق عن الكتاب أنه عن موضوع مثير ، لم يقرأ قط مثله حرارة أشواق ، وعنف نبض بالحيوية . . ولقد صدق . . ولكن ماأشد مايثير فى النفس من التقززّ والاشمئزاز ! !

وكانت فى الكتاب عدا هذه مقطوعات قصيرة يشيع فيها الحزن والأسى ، وصفت فيها فراغ حياتها وظلامها ووحشتها بعد أن تركها . . ولكنّها تنتهى بالعبارات العاوية ، تجأر بأن الهناء الذى نعمت به ، والسعادة التى ترشّفت كؤوسها المترعة أياما ماأقصرها من العمر الغارب !! جديرة بأن تلقى ماتلقاه اليوم ، وأن تقاسى ماتقاسيه فى الصحراء الجديبة التى وجدت نفسها فيها من بعده . .

وفى حسابها ، أن عمر هذا الحب لن يطول أكثر من أسابيع قلائل فإذا به ينمو وتمتد له الجذور فى الأعماق ، والفروع ، تتكاثر وتتعانق ، مثقلة بالزهر ، فواحة بالعطر عهدا طويلا .

وفجأة يموت الشاب . . ولكن كيف ؟ ؟ ومتى ؟ وأين . . ؟ ؟

هذا مالم يستطع جورج بيريجرين أن يزيح عنه الستار . . وأعقب موت الشاب العاشق ـ فى الكتاب ـ عويلا طويلا ، لايصدر الاّ من قلب مزقته الأحزان ولكنها أحزان لاتستطيع أن تعكف عليها الكاتبة ، ولا أن تبوح بسرّها لمخلوق . . فقد كان عليها أن تمرح ، وأن تقيم حفلات العشاء ، وأن تسلك كما ظلت تسلك دائما دون أن يطرأ عليها أى تغيير ، وإن كان الضوء الذى شع فى ظلام حياتها مرة قد انطفأ الى الأبد . . وإن كانت هى قد طواها الألم وأضناها الشقاء .

وآخر مقطوعة من الكتاب كانت مجموعة من أربع رباعيات ، أذعنت فيها العاشقة لمصابها وحنت رأسها للقدر .

كانت الساعة الثالثة صباحا حين ألقى جورج بيريجرين الكتاب من يديه أخيرا وبدا له أنه كان يسمع صوت زوجته إيفى فى كل سطر . . بل فى كل كلمة. . . ولكم من مرة وقع على كلمات سمعها تستعملها . كما كانت هناك تفاصيل ليست غريبة عليه إطلاقا . . فلاشك أبدا فى أن القصة فى الكتاب ، قصتها هى . . وواضح وضوح الشمس فى رابعة النهار .

ولم يكن ما أخذ يشعر به هو الغضب ، أوالخوف ، أوالرعب . . لا . . . وأنما هو الذهول والحيرة أكثر من أى شىء . . إذ كان اشتغال قلب ايفى بقضية حب ، وعلى هذه الصورة العنيفة التى يزدحم بمشاهدها الكتاب أمرا لايقل غرابة وبعدا عن المنطق والعقل عن أن يرى هذه السمكة المصنوعة من البلّور على رف الموقد فى مكتبه ـ وهى من أجمل مقتنياته ـ تحرّك ذيلها فجأة .

وقد فهم الآن معنى تلك النظرات الساخرة التى كان يراها فى عينى الرجل الذى تحدث اليه فى النادى ، كما فهم لماذا كانت (دفنى) ، وهى تتحدث عن الكتاب ، تبدو وكأنها تتحدّث عن فكاهة ممتعة ؟ . ثم لماذا حين مرّ بالمرأتين الجالستين على

الأريكة فى حفلة الكوكتيل ، غالبتا ضحكة مكتومة ؟.

وتصبب العرق من جبينه . . وسرعان ماتملكه الغضب فجأة ، وقفز كالملسوع من مقعده ليذهب ويوقظ ايفى من نومها ثم يسألها ايضاحا للمسألة كلها . . ولكنه وقف عند باب غرفتها ، فقد كان رغم كل ذلك لايملك برهانا . . كتاب . . كتاب لاأكثر ولاأقل . . وتذكر فى هذه اللحظة انه قال لأيفى ، أنه كتاب جيد وممتع . . صحيح أنه لم يقرأه ، ولكنه تظاهر بقراءته ، وأنه ليكون أحمق معتوها حقا لو أنه سلم بذلك .

وتمتم قائلا لنفسه :

ـ يجب أن أكون على حذر فى كل خطوة أريد أن أخطوها . . ولذلك فقد قرر أن يتريث يومين أوثلاثة . . وأن يقلّب الأمر على وجوهه كلّها ، وعندئذ يستطيع أن يبت بشىء . .

وذهب الى فراشه ، ولكنه لم يستطع أن ينام . وظل يردد فى نفسه :

ـ ايفى . . وايفى دون خلق الله !!!

وتقابلا على مائدة الفطور فى صباح اليوم التالى كالمعتاد ، وكانت ايفى كالعهد بها ، هادئة رصينة متزنة رابطة الجأش . . امرأة فى منتصف العمر ، لاتبذل أى مجهود لتبدد مسحة الهدوء والإتزان ، ولالتبدو أصغر سنا مما هى . . وتأملها ، وكأنه لم يرها منذ سنوات . . ماتزال لها نفس القسمات الرضية الوادعة ، وعيناها الزرقاوان الشاحبتان ساكنتان ، وليس فى جبهتها الصريحة البيضاء ماينم عن الخطيئة أو الاثم ، وأبدت ، وهى جالسة فى مقعدها المعتاد أمامه ، نفس الملاحظات التى اعتادت ان تبديها دائما فقالت :

ـ ما أجمل أن يعود المرء الى الريف بعد هذين اليومين اللذين قضيناهما فى لندن . .! ماذا ستفعل هذا الصباح ؟

وكان الموضوع كله غير مفهوم بالنسبة له .

وبعد ثلاثة أيام ذهب جورج بيريجرين لرؤية محاميه ، وكان المحامى (هنرى) صديقا قديما له ، كما كان محاميه الخاص أيضا ، وكان له مكتب لايبعد عن محل بيريجرين كثيرا ، وقد كانا يخرجان للصيد معا طيلة سنوات مضت ، وكان هنرى يقضى يومين من أيام الأسبوع كسيد من سادة الريف ، ثم يعمل بقية الأيام الخمسة محاميا فى شيفيلد . . وكان رجلا طويلا متين البناء ، ذا مزاج يغلب عليه حب الصخب والمرح ، يوحى بأنه يحب ان ينظر اليه الغير كرجل رياضى ، وكإنسان رضى الخلق أكثر منه محاميا أو رجل أعمال . ولكنه كان ذكيا . واسع الاطلاع والخبرة بالحياة .

وماكاد يرى جورج بيريجرين يدخل مكتبه حتى نهض مرحبا وهو يهتف :

ـ حسنا . . . حسنا ياجورج ، ما الذى جاء بك اليوم ياترى ؟ ؟ لقد قضيت وقتا طيبا فى لندن كما علمت . . أما أنا فسأنطلق بضعة أيام فى الأسبوع القادم . . قل لى . . كيف حال إيفى ؟؟

قال بيريجرين وهو يرمقه بارتياب :

ـ لقد جئتك بشان يختص بها . . هل قرأت كتابها ؟؟

وكانت أحاسيسه ومشاعره قد أصبحت أكثر رهفا خلال الأيام الأخيرة ، فلم يفته التغير الطفيف الذى انساب فى ملامح المحامى . . ولاح له كأن صديقه قد أخذ حذره فيما هو مقدم على الخوض فيه فقال :

ـ أجل لقد قرأته . . وإن نجاحه لمنقطع النظير . . اليس كذلك ؟ ؟ تصور أن تدخل ايفى حلبة الشعر . . وان الإعجاب بكتابها لن ينتهى .

وكان بيريجرين يوشك أن يفقد سيطرته على أعصابه فقال :

ـ لقد وضعنى فى موقف الرجل المغفل تماما .

ـ أى كلام فارغ هذا ياجورج . . لاأرى أى ضير فى أن تؤلف ايفى كتابا . . يجب أن تزهو بها وأن تفخر بالمجد الذى أصبحت ترفل فى ثيابه .

ـ حسبك . . حسبك هراء وهذرا . . إن الكتاب قصتها هى . . وإنك لتعرف ذلك كما يعرفه الناس جميعا . . وأحسبنى الشخص الوحيد الذى لايعرف من كان عشيقها .

ـ أيها الولد العجوز . . هناك شيء يسمونه الخيال . . وليس هناك مايمنع أبدا أن يكون الأمر كله مختلقا من نسج الخيال .

ـ اسمع ياهنرى . . إن صداقتنا ، صداقة عمر ولكم قضينا معا ، أوقاتا ملؤها المتعة والصفاء ، فكن أمينا شريفا كما عهدتك دائما معى . . هل تستطيع ان ترفع عينيك فى وجهى وان تقول ـ صادقا ـ إنها قصة من نسج الخيال .

وتململ هنرى بلين فى كرسيه وقد أربكه مانم عنه صوت بيريجرين من هم وضيق فقال :

ـ ليس من حقك أن توجه الى سؤالا كهذا . . اسألها هى . . اسأل ايفى .

وأجاب جورج بعد لحظة هصره فيها الم ساحق .

ـ لا أجرؤ . . انى أخشى . . أخشى أن تقذف فى وجهى بالحقيقة .

ومرت فترة صمت متأزم ثقيل ثم عاد جورج يقول :

ـ من هو العشيق ؟ ؟

ووجه بلين الى عينيه نظرة ثابتة وقال :

ـ لست أدرى . . . ولو كنت أعرفه لما أخبرتك عنه .

ـ ماذا ؟ ؟ ماذا ايها الخنزير . . ؟ اما ترى فى أى موقف أنا الآن . . أتظن أنه مما يسرّ المرء أن يصبح هزأة يسخر منه الجميع .

وأشعل المحامى سيجارته . . وظل يسحب أنفاسا منها ينفثها فى الفضاء ثم قال أخيرا :

ـ لست أدرى ماذا يمكن أن أصنع من أجلك .

ـ لديك مخبرون ، ومحققون خصوصيون تستخدمهم كما أظن . أريد منك أن تعهد اليهم بالمهمة . . أن تطلب منهم ازاحة الستار عن كل شيء .

ـ لايحسن بمثلك أن يبعث المحققين وراء زوجته . . ثم بفرض أن لأيفى عشيقا ، أوقصة حب كالتى فى الكتاب ، فواضح أن هذا كان منذ سنين عديدة . ولا أظن أن فى الأمكان الإهتداء الى شيء الآن . . والظاهر أنهما قد استطاعا أن يخفيا كل شيء بإحكام دقيق . .

ـ لايهمنى شيء من هذا كله . . وكل ماعليك هو أن تعهد بالمهمة الى محققين حاذقين . . أريد معرفة الحقيقة . . كاملة .

ـ كلاّ ياجورج . . لن أقوم بهذه المهمة . فإذا كنت مصرا على أن تمضى فى طريقك فالأولى بك أن تستشير محاميا آخر . . ثم اسمع . . حتى ولو كانت لديك البراهين على أن إيفى لم تكن مخلصة لك ، فما جدوى ذلك ؟ ؟ وانك لتكوننّ أحمق لو أنك طلّقتها ، لأنها قد اقترفت جريمة قبل عشر سنوات مثلا .

ـ اذن . . فسأنهى الأمر معها . . ساصارحها .

ـ تستطيع أن تفعل ذلك منذ الآن . . ولكنك تعلم كما أعلم أنا أيضا أنها ستتركك . .

فهل . . هل تريدها أن تذهب فعلا ؟؟

والقى جورج فى وجه محاميه نظرة ملؤها التعاسة والشقاء ثم قال :

ـ لست أدرى فقد ظللت مؤمنا دائما بأنها زوجة طيبة فهى تدير البيت بكفاءة نادرة ، ولم نعان قط من مشاكل الخدم ، ولقد صنعت الأعاجيب فى الحديقة ، وهى رائعة مع جميع القرويين . . ولكن . . ولكن هناك كرامتى أيضا . . وكيف ؟؟ كيف أستطيع أن أواصل العيش معها وأنا أعلم أنها لم تكن مخلصة لى . . ؟

وهنا بادره صديقه قائلا :

ـ ولكن . . ولكن ياعزيزى ، هل كنت أنت مخلصا لها دائما . . ؟

ـ تقريبا . . وعلى أية حال فقد انقضى على زواجنا أكثر من أربع وعشرين سنة . .

ورفع المحامى حاجبيه قليلا ، ولكن جورج كان مشغول الذهن بما كان يريد الوصول اليه فقال :

ـ لاأنكر أنى أسىء قليلا . .

وأجاب هنرى بابتسامة خفيفة :

ـ إننا لانسمع الاّ حجة الرجل وحده فى هذه الأمور .

ـ ايفى هى آخر امرأة يخطر على البال أنها يمكن أن تلفظ لجامها . . أقصد أنها امرأة كتوم لايسهل إرضاؤها ، فكيف . . كيف أقدمت على كتابة هذا الكتاب ؟

ـ لابد أنها كانت تجربة بالغة المرارة ، شديدة الوقع على نفسها . . وأحسبها قد وجدت فى كتابة قصتها تفريجا لما عانت من هم ، ولما ضاق به صدرها .

ـ ولكن . . اذا كان لابد لها أن تكتب فلماذا لم تنشر ماكتبته باسم مستعار . ؟ ؟

ـ لقد وضعت على الكتاب اسمها العذرى ، وأظن أنها قد وجدت ذلك كافيا ، وأحسبه كان كذلك فعلا لولا هذه الضجة التى أثارها الكتاب .

وكان جورج بير يجرين والمحامى يجلسان كل منهما مقابل الآخر والمكتب بينهما . . وقطّب جورج حاجبيه ، ومرفقاه على حافة المكتب ، ووجهه بين يديه وهو يقول :

ـ كم هو مؤلم ألا أعرف أى نوع من الشبان هو . إن المرء ليعجز حتى عن معرفة ماإذا كان (جنتلمان) . . ماذا يمنع أن يكون مزارعا ، أو كاتبا فى مكتب محام ؟

ولم يسمح هنرى لنفسه حتى بمجرد الابتسام ، وكانت فى عينيه نظرة متسامحة

متلطّفة وهو يقول :

ـ إن معرفتى الجيدة لايفى تجعلنى أرجّح أن عشيقها كان على مايرام . . وعلى اية حال فانا واثق أنه لم يكن كاتبا فى مكتبى .

وتأوه جورج بحرقة وهو يقول :

ـ إنك لاتجهل أنها صدمة قاسية بالنسبة لى . فقد كان اعتقادى أنها مغرمة بى . . ولكن ليس من الممكن أبدا أن تكتب هذا الكتاب الا إذا كانت تكرهنى .

ـ كلا لاأعتقد ذلك . . لاأظنها قادرة على البغض .

ـ انك لاتزعم بالطبع أنها تحبنى.

ـ كلا لا أزعم

ـ إذن فما هو شعورها نحوى ؟ ؟

ـ عــدم الاهــتمام .

وهز جورج كتفيه قليلا ، واحمر وجهه وواصل المحامى حديثه قائلا :

ـ على اية حال ، فأنت ـ من جانبك ـ لاتحبها . . اليس كذلك ؟ ؟

ولم يجب جورج بيريجرين اجابة مباشرة وإنما أخذ يقول :

ـ لقد كانت ضربة قاصمة لى أنها لاتنجب اطفالا ، ومع ذلك فلم أدعها قط تشعر اوتظن انها قد خذلتنى . ظللت دائما لطيفا معها . . وقد اديت واجبى نحوها فى الحدود المعقولة . .

ومرّ المحامى بيده على فمه محاولا أن يخفى ابتسامة تتبادر الى شفتيه بينما واصل بيريجرين حديثه قائلا :

ـ إنها لصدمة قاسية . . عليها اللعنة . . ان ايفى حتى قبل عشر سنوات لم تكن تصلح موضوعا للحب ، بل يعلم الله انها لم يكن فيها مايستحق الالتفات والنظر .

ثم تأوّه بعمق وهو يقول :

ـ قل لى . . ماذا كنت تفعل لو كنت مكانى ؟ ؟

ـ لاشيء .

ودفع جورج بيريجرين نفسه الى الوراء فى كرسيّه ، وتطلع الى هنرى بتلك النظرة القاسية العابسة ، التى ينظر بها لو كان يفتّش فرقة عسكرية ثم قال :

ـ لاأستطيع . . لاأستطيع أن أعالج الأمر بهذه الطريقة . . فقد أصبحت سخـرية

الجميع ، ولن أستطيع أن أرفع راسى فى وجه أى مخلوق منذ اليوم .

وقال المحامى مسرعا وفى حدّة :

ـ كلام فارغ .

ثم تابع فى نبرة باسمة متوددة .

ـ اسمع أيها الولد العجوز . . ان الرجل ـ أيا كان ـ قد شبع موتا . . والقصة كلها قد وقعت منذ زمن بعيد . . فانس كل شيء عنها . . وتحدّث الى الناس عن كتاب ايفى . . بل وتكلّم عنه كثيرا مع الجميع قل لهم انك فخور بأنك زوجها واسلك سلوك من كان ومايزال يثق بها الى أبعد حد . . وانك لتعلم انها لا يمكن أن تكون الامخلّصة لك الآن . . وما أسرع مايتقرر هذا فى أذهان الناس . وذاكرة هؤلاء الناس ! ! كل الناس أضعف من أن تذكر غدا ماتلوكه وتلغط به اليوم . . سوف ينسون ، وكل شيء ينتهى على مايرام .

ـ ولكنى سوف لن أنسى .

ـ كلاكما فى أواسط العمر ، وربما كانت تعانى من أجلك ، وتبذل فى سبيلك أكثر مما تتصور وتدرك . . ولسوف تشعر بوحدة مريرة دونها . فلاتنس اذا شئت . . لابأس بذلك . . ولكن قد يكون من الخير أن تحتفظ ـ إذا استطعت ـ فى رأسك الغليظ هذا ، بحقيقة واحدة ، وهى أن فى ايفى من الخصائص والمميزات اكثر كثيرا مما أتيح أن ترى وتلمس حتى اليوم .

ـ عليك اللعنة . . إنك لتتحدث كما لو كنت أنا الخليق باللوم والتقريع .

ـ كلاّ . . . لاأظن انك خليق باللوم والتقريع . . ولكنى لست متأكدا من أن ايفى خليقة بهما ايضا . . لاأظن انها أرادت أن تعشق هذا الشاب . . هل تذكر تلك الأبيات التى جاءت فى نهاية القصة ؟ . ماجال بذهنى وأنا اقرأها هو انها وان كانت قد حزنت لموته ، فانها ـ بشكل ما ـ قد رحّبت بهذا الموت . . وقد ظلت طيلة فترة الحب شاعرة بوهن الرابطة التى بينه وبينها . . وقد مات الشاب فى عنفوان حبه الأول ، ولم يدر بخلده قط أن الحب نادرا مايدوم . . كل ماعرفه عن حبه هو الهناء والجمال . . وفى حزنها المرير النائح على موته ، كان عزاؤها انه بالموت قد تجنب المآسى والأحزان التى كان لابد وأن تغشى نهاية هذا الحب .

ولم يقل جورج اكثر من : « أكاد ادرك ماتعنيه » . . . وظل يحملق فى صمت فى المحبرة الموضوعة على المكتب ، بينما ظل صديقه يرمقه بنظرة مستطلعة لاتخلو من عطف ثم قال بلطف :

ـ هل تدرك انت ياترى ، اى شجاعة ظلّت تتذرّع بها لئلا تبدو منها اية نأمة أو حركة تنم عن مدى الشقاء الذى عانته وعاشته بعد موته ؟ ؟

وتنهّد بيريجرين ثم قال :

ـ لقد تحطّمت أيفى . . تحطّمت . . اظنك على صواب . . وماجدوى العويل على اللبن المندلق سوف تزداد الأمور سوءا إذا ما أثيرت حول الموضوع أية ضجة .

حسنا ..

وابتسم الكولونيل جورج بيريجرين ابتسامة صغيرة مشفقة ثم قال :

ـ سأعمل بنصيحتك . . لن افعل شيئا . . ولينظر الناس الىّ نظرتهم الى مغفّل ، أو كيفما بدا لهم . . فالحقيقة انى لاادرى ماذا أستطيع أن أفعل دون ايفى ؟ . ولكنى أريد أن أقول : ان شيئا واحدا سوف أظل غير قادر على فهمه ربما الى أن أموت . . وهو « ما الذى ، بحق السماء . . . ما الذى رآه هذا الشاب فى ايفى ، مما يستحق كل هذا الحب ؟ »




أمطار

أمطار

كانت ساعة النوم قد أزفت ... وعندما يستيقظ القوم ، صباح الغد ، سيكون الساحل قيد أبصارهم .

وأشعل الدكتور (ماكفيل) غليونه ، وأخذ يبحث ، وهو يستند الى السياج عن القطب الجنوبى فى السماء .. وكان سعيدا مغتبطا ، بأن يستقر هادئا فى (آبيا) لفترة تمتد اثنى عشر شهرا على الأقل بعد أن قضى سنتين فى ميدان القتال ، حيث اصيب بجرح استغرق برؤه وقتا أطول مما ينبغى . وكان قد أخذ يشعر بالارتياح للرحلة فعلا .
كانت لاتزال تطرق سمعه تلك الأنغام الجافة التى ظل يرسلها بيان ميكانيكى احياء لحفلة اقامها بعض الركاب الذين سيغادرون السفينة عندما ترسو فى ميناء (باجو باجو) صباح الغد .

ولكن سطح السفينة أمسى هادئا فى النهاية .. ورأى على مبعدة منه زوجته ، مستلقية على كرسى طويل ، تتحدث الى آل دافيد سن فاتجه اليها . وعندما جلس تحت الضوء ، وأزاح قبعته عن رأسه ، ظهر أن له شعرا بالغ الاحمرار بوفرة نافرة على جبهته ، وبشرة مرقطة تلازم الشعر الأحمر ... وأنه رجل قد بلغ الأربعين من العمر ، بادى النحافة ، ذو وجه متهضم وملامح تدل على التمسك بالدقة ، او بالأحرى ، على شىء من التحذلق والادعاء ... وكان يتكلم بلهجة اسكوتلاندية فى صوت بالغ الخفض والهدوء ..

وكان باعث الفة السفر والطريق التى نمت بين أسرة ماكفيل وأسرة دافيدسن تقاربا فى الأفكار ، أكثر منه تشابها فى الميول والأذواق ، اذ كانت العلاقة التى تربط بين أفراد الأسرتين ، هى النفور المشترك من الرجال الذين يقضون سحابة يومهم وطيلة ليلهم خارج البيت .... ولم تكن مسز ماكفيل مخدوعة فيما ذهبت اليه من أن أسرة

دافيدسن تتحاشى ايجاد علاقة بينها وبين احد ، فيما عداها هى وزوجها .

وقالت مسز ماكفيل ، وهى تنفض الغبار عن لوازم زينتها : ان مسز دافيدسن تقول : إنها لا تدرى كيف كانت تنقضى هذه الرحلة ، لولا وجودنا ، واننا ـ حقا ـ الأسرة الوحيدة التى عنيت هى وزوجها بان تتعرف اليها .

وقال الدكتور ماكفيل ساخرا : ما كنت أحسب أن تبلغ العظمة والكبرياء بمثلهم أن يتحملوا تكاليف حاشية تسير فى ركابهم ..

وقالت زوجته : ليست المسألة مسألة حاشية ، ولكنى أفهم تماما ماذا تعنى ؟ فإنه لا يجمل كثيرا باسرة كأسرة دافيدسن أن تكون لها علاقة بأولئك الرعاع فى قاعة الجلوس .

وقهقه الدكتور ماكفيل وهو يقول :

ولكنى رجوتك مرات ومرات ألا تهزأ أو تسخر . ولعمرى انى لأكره أن يكون لى مثل طباعك ... فانك لا تنظر قط الى خير ما فى الناس ..

واولاها نظرة جانبية من عينيه الزرقاوين الشاحبتين ولكنه لم يجب . فقد علمته الأعوام الكثيرة التى قضاها معها أن خير ما يفضى الى السلام والدعة بينه وبينها ، هو أن يترك لها الكلمة الأخيرة فى كل نقاش ... واذ كان قد فرغ من خلع ملابسه قبلها ، فقد تسلق الى السرير العلوى واستلقى وشرع يقرأ استعدادا للنوم .

وعندما خرج الى سطح السفينة فى اليوم التالى ، وجد الساحل ممتدا متراميا أمام ناظريه ، فاخذ يتطلع بعينين ملؤهما التوفز والرغبة ... فقد كان يرى خطا رفيعا من رمال الساحل الفضى تنهد مسرعة نشطة الى جبال تكسوها الى قممها حلل من سندس بهيج .، وقد امتدت أشجار جوز الهند ، ملتفة خضراء ، على طول الساحل ، دانية من الماء حتى لتكاد تخوض فيه ... تتراءى بينها ، بيوت صغيرة ، تلفها النباتات المتسلقة والحشائش ، بينما يوصوص من هذه الفرجة أو تلك ؛ مبنى كنيسة صغيرة بيضاء .

وجاءت مسز دافيدسن تقف الى جانبه حيث وقف ، وقد ارتدت حلة سوداء ، وحول عنقها سلسلة ذهبية ... وكانت امرأة ضئيلة الجسم ، شعرها بنى خامد ، على أنه محكم التصفيف ، ذات عينين زرقاوين جاحظتين ، وراء نظارة من النوع الذى يثبت على

الأنف مستغنيا عن الأذنين ... أما وجهها فقد كان طويلا ، كُوجه المعزة ، ومع ذلك فهو لا يوحى بالبلاهة والحمق بقدر ما يوحى باللماحية وسرعة البديهة ... ولها من الطير حركته السريعة .. وكان أكثر ما يسترعى الانتباه فيها هو صوتها ، اذ يروعك أنه مرتفع ، معدني ، يقع فى السمع مضطردا رتيبا ، مثيرا للأعصاب ، خاليا من أى تنغيم أو غنة ، حتى لكأنه صخب محتدم لتدريب عسكرى على حركة الشهيق والزفير ..

وقال لها الدكتور ماكفيل فى ابتسامته المغتصبة : لابد ان هذا المكان يبدو لك مألوفا كالجزر التى تعيشون فيها .

ـ الجزر التى نقيم فيها من الجزر المرجانية الواطئة ... اما هذه فبركانية مرتفعة .. وأمامنا عشرة أيام اخرى حتى نصل الى حيث نقيم .

وقال الدكتور ماكفيل مازحا : ولكن الأيام العشرة فى هذه الأصقاع ، كأنها المسافة بين شارعين متجاورين فى انجلترا .

ـ فى التعبير شيء من المبالغة ... ولكن تقدير المرء للمسافات فى البحار الجنوبية يختلف فى الواقع .. وعلى هذا الاعتبار يكون . ما تقوله صحيحا ..

وتنهد الدكتور ماكفيل فى خفوت ، بينما استمرت هى تقول :

ـ انى لسعيدة بأننا لا نقيم هنا ، اذ يقال إن هذه المنطقة مكان يصعب فيه العمل علينا الى حد كبير ... رسو السفن فيه يجعل الناس فى اضطراب دائم ... ثم هناك مقر القوات البحرية .. وهذا ما يضر بالسكان الأصليين ... اما منطقتنا فإنها خالية من هذه المتاعب التى تستنفد الجهد .. فيها بالطبع تاجر او اثنان .. ولكنا نحرص على أن نجعلهم يسلكون سلوكا مرضيا ... فاذا لم يذعنوا ، فاننا نستطيع ان نجعل الحياة من حولهم جحيما يسرهم ان يغادروه .

وأخذت تتامل الجزيرة الخضراء ـ وهى تصلح وضع نظارتها على أنفها ـ بنظرات قاسية ثم قالت :

ـ أما هنا .... فان عملنا يكاد يكون عديم الجدوى كليا ... وانى لن استطيع حقا ان افى بما علىّ من واجب الشكر لله على أن جنبنا العمل هنا على الأقل .

وكانت المنطقة التى يقوم بالتبشير فيها دافيدسن ، تتكون من مجموعة من الجزر

شمالي (ساموا) ... تترامى بين كل جزيرة واخرى المسافات التي كان عليه أن يطويها على زورق صغير بينما تظل زوجته تدير أعمال الإرسالية في المركز الرئيسي ... وأحس الدكتور ماكفيل كأن قلبه يغوص بين أضلاعه عندما طافت بذهنه البراعة والكفاية اللتان تدير بهما العمل في المركز العام . وظلت هي - من جانبها - تتحدث عن انحطاط السكان الأصليين ، بصوت لاسبيل الى اخماده ، ولكن في انفعال مرتبك الى حد عنيف .. وكان استحياؤها وهي تتحدث غريبا لا مثيل له .. وهو يذكر أنها قالت له في أحاديثها عند بدء تعارفهما :

« هل تدرى ... ان عاداتهم في الزواج ، عند بدء استقرارنا في هذه الجزر ، كانت فظيعة الى حد قد لا أستطيع أن أصفه -؟. ولكنى ساقصها على مسز ماكفيل .. وهى تخبرك بها »

ثم رأى زوجته ومسز دافيدسن جالستين على كرسيين من كراسى السطح ، وكل منهما ملتصقة بالأخرى ، وقد استغرقتا في حديث بالغ الإثارة لفترة امتدت ما يقرب من ساعتين ... وعندما كان يمر بهما - وهو يتمشى ذهابا وايابا - سمع همس المسز دافيدسن المحتدم كأنه صخب سيل يتدفق بين صخور الجبال ... وأدرك من فم زوجته المفتوح ، ووجهها الشاحب ، أنها كانت تستمتع بسماع تجربة مثيرة ... وعندما آوت معه الى مخدعهما في الليل أعادت على سمعه ، بانفاس متخافتة متلاحقة ، كل ما سمعته من حديث مسز دافيدسن .

وعندما لقيته مسز دافيدسن صبيحة اليوم التالى قالت له في تهلل واعتزاز :

« ارأيت ؟؟؟ .. هل سمعت قط ما هو اغرب ؟؟؟ فلا يدهشك بالطبع أنى لم أستطع أن اخبرك بكل ذلك بنفسي ... وهذا مع انك رجل طبيب » .

ثم تفرست في وجهه ، وفى عينيها تطلع متوفز ، الى انها قد اشاعت في نفسه ما كانت تتوقع من تأثير ... ثم قالت :

« هل يدهشك ... اننا أول عهدنا بهذه الجزر ، كانت قلوبنا تغوص في جوانحنا رعبا وجزعا ؟ ولعلك لا تستطيع ان تصدقنى اذا قلت لك ، انه كان من المستحيل أن تجد فتاة واحدة مستقيمة الخلق في اية قرية من القرى ...

واستعملت كلمة (مستقيمة) بأسلوب بالغ الدقة في الإخراج والتعبير . ثم

استرسلت تقول :

« وقد تبادلنا الرأى فى هذا الأمر ـ انا ودافيدسن ـ وقررنا أن أول ما ينبغى علينا أن نفعله ، هو : أن نمنع الرقص ... وقد كانوا مولعين بالرقص الى حد الجنون ..

وعلق الدكتور ماكفيل يقول :

ـ أنا نفسى لم اكن انفر منه عندما كنت شابا ...

ـ هذا ما أدركته ، عندما سمعتك تطلب من المسز ماكفيل أن تقوم باداء رقصة معك فى الليلة الماضية ... ولا أحسب أن هناك ضيرا ما فى أن يرقص الرجل مع زوجته ، ولكنى لا أخفى عليك أنى قد ارتحت عندما رفضت ... وبالنظر الى هذه الحالة .. فقد رأيت ان نحتفظ بانفسنا لأنفسنا .

ـ اية حالة تعنين ؟

ورمقته مسز دافيدسن بنظرة خاطفة وراء نظارتها ولكنها لم تجبه ، ثم استمرت تقول : ولكن ليس الرقص فى الحالين واحدا ... يختلف عند البيض عنه عند هؤلاء فى هذه الجزر ومع أنى اتفق تماما مع مستر دافيدسن الذى كثيرا ما ردد أنه لا يفهم كيف يستطيع زوج ما ان يقف مكتوف اليدين ، وهو يرى زوجته بين ذراعى رجل آخر ، فلم أرقص رقصة واحدة منذ تزوجت ، ولكن الرقص عند الوطنيين هنا شيء آخر تماما ... فهو ليس داعرا فى نفسه فحسب ، ولكنه ينتهى بطبيعته الى الدعارة والفجر .... وعلى اية حال فانى اشكر الله على أننا قد استطعنا أن نستأصل شأفته . ولا اظننى مخطئة اذا قلت إن (احدا ما) لم يرقص فى منطقتنا ، منذ ثمانى سنوات حتى اليوم .

وكانت السفينة قد وصلت بهم الآن الى فوهة الميناء ... ولحقت بهما المسز ماكفيل .. واستدارت السفينة استدارة حادة ، واخذت تمخر الى الرصيف . والميناء واسع يدور به الساحل ، بحيث يتسع لأسطول كامل من البوارج . وقد اشرأبت حوله الجبال الخضراء شاهقة حادة الانحدار . وقام بيت الحاكم فى حديقة بالقرب من مدخل الميناء بحيث يستقبل كل ما يهب عليه من نسائم البحر . وكانت النجوم والخطوط تتدلى فى استرخاء من صارية العلم ... ومرت بهم السفينة على صفّين او ثلاثة صفوف من البيوت المعدة لسكنى الأوروبيين وعلى ملعب للتنيس .. ثم وصلت السفينة فى النهاية الى الرصيف ومستودعاته .

*

وأشارت مسز دافيدسن الى سفينة صغيرة راسية على مبعدة مئتين او ثلاثمئة ياردة

من المرفأ قائلة : إنها هى التى ستقلع بهم الى (آبيا) . وعلى الرصيف ، كان حشد من الوطنيين تجمعوا من مختلف أطراف الجزيرة ، واخذوا يهزجون ويصخبون ، وقد دفع بعضهم مجرد الفضول ، بينما اسرع البعض الآخر ليتقايض مع ركاب سفينة فى طريقها الى سيدنى ، وقد حمل الكثيرون منهم فاكهة الأناناس واقناء الموز الضخمة ، وعقودا من الأصداف أو انياب كلاب البحر ، الى جانب الأوانى المصنوعة من الكافا ، ونماذج لقوارب البحر .... وتفرق بينهم البحارة الأمريكيون بملابسهم النظيفة المنسقة ووجوههم الحليقة الصريحة ، كما وقف بينهم عدد من موظفى الجزيرة الرسميين .

وظل أفراد اسرتى ماكفيل ودافيدسن يرقبون هذا الحشد من الرجال ، بينما كانت حقائبهم وامتعتهم تنقل من السفينة الى الرصيف . واخذ الدكتور ماكفيل يلاحظ الأطفال والشبان الذين يعانون من قروح شوهت وجوههم ... وبحكم مهنته كطبيب ؛ ابرقت عيناه ، وهو يرى ـ لأول مرة فى حياته المهنية ـ مصابين بمرض (الفيل) من رجال يمشون باذرع ضخمة ثقيلة ، ونساء يجررن سوقا شوهها التضخم الفظيع .

وكان النساء والرجال يرتدون (اللافا لافا) الذى لفتت مسز دافيدسن نظر الدكتور ماكفيل اليه قائلة :

ـ إنه لباس فاضح دون شك .. ومستر دافيدسن يرى وجوب تحريمه بحكم القانون ... ولعمرى ... كيف يمكن أن تتوقع للناس أن يتمسكوا بأى خلق كريم ، وهم لا يرتدون شيئا من الملابس سوى هذه القطعة من القماش الأحمر حول خصورهم .

وقال الدكتور ماكفيل ، وهو يجفف عرق جبهته :

ـ ولكنه ملائم لطبيعة المناخ

ونزلوا الى أرض الرصيف أخيرا ..

وكان الوقت مايزال بكرة الصباح ، ومع ذلك فقد كان الحر خانقا لا يطاق ، حتى ليخيل للمرء أنه لا سبيل الى نسمة واحدة من الهواء فى جزيرة (باجو باجو) التى تحيط بها الجبال من جميع الجهات .

واستمرت مسز دافيدسن تقول فى صوت حاد النبرات :

ـ لقد استطعنا أن نحرم (اللافالافا) فى جزرنا ، واذا كان هناك من يرتديه من المسنين فانهم قلة ... جميع النساء الآن يرتدين الثياب ، بينما جميع الرجال يرتدون

السراويل .

وأمسكت لحظة عن الكلام ، وهى ترسل لمحتين او ثلاثا من عينين كعينى طائر ، الى سحب داكنة مثقلة ظهرت طافية فوق فتحة الميناء ... وما هى الا لحظات حتى كانت قطرات من المطر تتساقط فى بطء .

وقالت مسز دافيدسن : يجدر بنا ان نلوذ بمكان ... فاتجهوا جميعا مع الجمهور المحتشد الى مظلة كبيرة من الحديد المضلع ... وما كادوا ... حتى اخذ المطر يهطل غزيرا زخارا كالطوفان ... ووقف الدكتور ماكفيل وزوجه ومسز دافيدسن ينتظرون فترة حتى لحق بهم مستر دافيدسن .

وكان مستر دافيدسن ـ طوال الرحلة ـ بالغ التأدب والرقة مع اسرة ماكفيل ، ولكن لم تكن له تلك الروح الاجتماعية التى تتمتع بها زوجته ... وقد قضى معظم وقته فى القراءة ..

وكان رجلا صموتا ، تغلب عليه الكآبة والانطواء .. فكنت تحس ، وأنت تراه ، أن لطفه ووداعته ليسا الا نوعا من الواجب فرضه على نفسه ، اكثر منهما طبيعة وفطرة ... كان بطبيعته رجلا محافظا حاد التزمت والاكتئاب ... وكان له مظهر نادر فريد ، اذ كان طويل القامة ونحيفا جدا .. مترامى الأطراف ، فى تفكك وانحلال ، ممصوص الوجه ، مع نتوء بالغ الغرابة فى عظمتى الوجنتين ... وكان يدهشك امتلاء شفتيه مع شحوب الموتى الذى يشيع فى هيئته كلها ... وكان يرسل شعر راسه طويلا ، بينما تطالعك عيناه السوداوان ، غارقتين فى محجريهما ، كبيرتين رهيبتين .. اما تكوين يديه بأصابعهما الكبيرة الطويلة ، فقد كان جميلا يسبغ عليه مظهر قوة هائلة . ولكن أشد ما يروعك فيه هو الإحساس الذى يشيعه فيك ، بالنار الخامدة بين جوانحه ... وهو احساس يثيرك دون أن تدرك كنه ما يبعثه فى نفسك من قلق وضيق .... وعلى اية حال لم يكن مستر دافيدسن رجلا تتاح معه فرصة للصداقة والود .

وقد جاء الآن بخبر لا يسر ... فقد ظهرت اصابة بالحصبة بين بحارة السفينة التى سيواصلون عليها رحلتهم ... والحصبة وباء يكاد يكون مستوطنا بين سكان هذه الجزيرة ... وقد تم نقل الرجل المصاب من السفينة الى المستشفى فى مركز الحجر الصحى بالجزيرة ... ولكن تعليمات تلغرافية جاءت من (آبيا) تقول : انه سوف لن

يسمح للسفينة بالرسو فى الميناء ؛ الى ان تتأكد جهات الاختصاص ، من عدم انتقال عدوى الوباء الى آخرين من بحارتها .

وقال مستر دافيدسن : ان معنى ذلك هو ان علينا ان نظل هنا عشرة ايام على الأقل .

وقال الدكتور ماكفيل : ولكنى مطالب بالشخوص سريعا الى (: آبيا)

وقال مستر دافيدسن : لاحيلة لنا فى الأمر ... واذا لم تظهر اصابة اخرى على ظهر السفينة فسوف يسمح لها بان تبحر بالركاب البيض ... اما الوطنيون ، فان جميع المواصلات ستمنع بالنسبة لهم ثلاثة اشهر .

وتساءلت مسز ماكفيل :• ترى هل يوجد فندق هنا ؟؟؟

وارسل مستر دافيدسن ضحكة خافتة وهو يقول : كلا .. أبدا ..

وماذا سنفعل إذن ؟؟

لقد كنت اتحدث فى ذلك الى حاكم الجزيرة ... ومما فهمته أنه يوجد تاجر ، على تلك الواجهة ... هل ترينها ؟؟؟ ولديه غرفة للإيجار . وما أراه هو أن نذهب اليه بمجرد توقف المطر لنرى ماذا يمكن أن نفعل ... ولا ينبغى أن تتوقعوا رفاها ... بل يجب أن تحمدوا الله اذا استطعنا أن نجد سررا ننام عليها ، وسقفا يعصمنا من الماء .

ولكن لم يبد ما يدل على ان المطر يمكن ان يتوقف عن الانهار . ولذلك فقد مشوا تحت المظلات وقد تدثروا بمعاطف المطر .... ولم تكن هناك مدينة او بلدة بالمعنى المعروف ... وإنما كل ما هنالك هو مجموعة من بيوت الموظفين ، ومعرض او معرضان ، وبعض مساكن الوطنيين ولكن فى المؤخرة بين اشجار جوز الهند ..... وكان البيت الذى يقصدونه على بعد خمس دقائق مشيا على الأقدام من المرفأ .... وهو بيت من طابقين له شرفات واسعة فى كل طابق ، وسقف من الصاج المضلع ... وكان صاحبه رجلا من عنصر مختلط ، اسمه (هورن) له زوجة من الوطنيين ويحيط به عدد من اطفاله السمر ... وكان له فى الطابق الأرضى دكان يبيع فيه المعلبات والاقمشة ... اما الغرف التى عرضها عليهم فقد كانت خالية من الأثاث تقريبا ... بل لم يكن فى الغرفة التى اختارها الدكتور ماكفيل وزوجته سوى سرير بسيط قديم ، وناموسية خلقة ، وكرسى

متخلع القوائم وحوض للغسيل ... وبعد ان ألموا بكل ما عرض عليهم جعلوا يتلفتون حولهم فى ذعر وتوجس بينما ظل المطر ينهمر دون توقف .

وعلقت فى النهاية مسز ماكفيل تقول : سوف لن أفكك الا ما نحتاج اليه من الأمتعة فقط . دخلت مسز دافيدسن الغرفة بينما كانت مسز ماكفيل تفتح احدى الحقائب ... وكانت بادية النشاط ، متوفزة الحركة ، دون أن يكون للظروف التى تحيط بها اى تاثير على أعصابها .... وقالت : اذا كنت تأخذين بنصيحتى ، فالأولى أن تبحثى لك عن خيط وابرة ، وأن تشرعى حالا فى رفو الشقوق التى تجدينها فى الناموسية ، والا فسوف لن يغمض لك جفن هذه الليلة ...

وسألها الدكتور ماكفيل : هل البعوض بهذه الكثرة هنا ؟؟
ـ هذا هو موسم البعوض ... وسوف تلاحظ عندما تدعى الى حفلة فى دار الحكومة فى (آبيا) أن جميع السيدات يزودن باغلفة الوسائد ليدخلن فيها ... يدخلن فيها اطرافهن السفلى .

وقالت مسز ماكفيل : اتمنى لو أن المطر يتوقف بعض الوقت ، فانى أستطيع أن أكون اكثر اقبالا على جعل المكان مريحا ... لو كانت الشمس مشرقة ....
وأجابتها مسز دافيدسن : أوه .... إذا كنت تنتظرين ذلك ، فإن انتظارك سيطول جدا ..
إن (باجو باجو) تكاد تكون اكثر الجزر أمطارا فى منطقة المحيط الهادى ... أما ترين الجبال وذلك الخليج هناك ... إنهما معا يجذبان المياه ... والمرء يتوقع الأمطار فى هذا الفصل من السنة فى كل لحظة .

ونقلت بصرها من الدكتور ماكفيل الى زوجته ، وقد وقفت هذه يائسة فى هذا الجزء من الغرفة أو ذاك ، كروح شاردة ... ثم زوت مسز دافيدسن ما بين شفتيها ، وقد قدرت أنه لابد لها أن تتولى قيادتهما ، لأن أمثالهما ـ من الذين يغرقون فى شبر ماء ـ يضايقونها .. بل لقد أحست كأن يدها تأكلها ، وتهيب بها ان تضع كل شيء فى مكانه بما يتفق مع طبيعتها ، فقالت :

ـ اعطنى ابرة وخيطا ، لأرفو لك هذه الناموسية بينما تواصلين انت فك أحزمة

الحقائب والأمتعة .... ثم .... الغداء سيجهز فى تمام الواحدة ... أما أنت يا دكتـور ماكفيل فالأولى بك أن تذهب الى المرفأ لتشرف على وضع أمتعتكم الثقيلة فى مكان جاف ... وانك لتعلم حال هؤلاء الوطنيين ، فانهم لا يبالون أن يضعوها فى أمـاكن تصفقها الأمطار طوال الوقت ..

وارتدى الدكتور ماكفيل معطف المطر ، وانطلق يهبط السلالم الى الدور الأرضى وكان مستر (هورن) ـ مالك الدار ـ واقفا عند الباب يتحدث مع مدير السفينة ، وكانا معا قد وصلا لتوهما من المرفأ ، مع امرأة ، من ركاب الدرجة الثانية ، سرعان ما تذكر الدكتور ماكفيل أنه قد رآها فى السفينة عدة مرات ..

وأومأ مدير السفينة ـ وهو رجل مترهل بعض الشىء ، متسخ الملابس الى أقصى حد ـ الى الدكتور بتحية من رأسه وهو يقول :

ـ هذه الحصبة مشكلة لم تكن فى الحسبان يا دكتور ... وانـى لأرى انـه قد استقربك المقام فى الطابق العلوى فعلا ..

ودار بذهن الدكتور ماكفيل ، أن الرجل لطيف المعشر ، ولكنه شديد الحياء ، وممن لا يسهل اغضابهم فقال :

ـ أجل فقد اخذنا غرفة فى الطابق العلوى .

ـ هذه ، مس تومسون ... وهى مسافرة معكم الى (آبيا) ... ولهذا فقد جئت بها الى هنا ..

وأشار مدير السفينة بابهامه الى المرأة الواقفة بجانبه ... وكانت عبلة فى السابعة والعشرين من عمرها ، ذات جمال يعوزه الصقل ، وتنقصه الرقة والوداعة ... كانت ترتدى فستانا أبيض ، وعلى راسها قبعة كبيرة بيضاء ... وقد تورمت سمانتا ساقيها ، فى جوربها الأبيض مما يلى نهاية الحذاء المصنوع من الجلد الأبيض اللامع ، وقالت وهى تمنح ماكفيل ابتسامة متوددة ، فى صوت أجش ..

ـ إنه يحاول أن يستلب منى دولارا ونصف فى اليوم لغرفة مجردة من الأثاث .

فقال مدير السفينة يخاطب صاحب الدار : ـ قلت لك انها صديقتى ياجو .... ولا تستطيع أن تدفع اكثر من دولار واحد ... ولاشك عندى انك ستقبلها بهذا الأجر ...

وكان التاجر صاحب الدار رجلا مكتنزا ، لطيفا هادىء الابتسام فقال :

ـ حسنا ... اذا كان الأمر كما تقول يا مستر سوان ... فانى ساحاول أن أفعل شيئا ما من أجلها ...

ولابد لى ان اتحدث فى الأمر الى مسز هورن ، فإذا رأينا أن فى وسعنا ان نخفض الأجر فسنفعل ..

وقالت مس تومسون : لا تحاول أن تجرب هذا الاسلوب معى ... علينا أن ننتهى الى قرار الآن ... فستتقاضى دولارا واحدا للغرفة فى اليوم .. ولا شىء غير ذلك اطلاقا .

وابتسم الدكتور ماكفيل معجبا بأسلوبها الجرىء فى مساومة الرجل ، وكان من النوع الذى تعود أن يعطى ما يطلب ... وربما فضل أن يخسر بعض ما يريد على أن يماحك ويساوم فتنهد وهو يقول : ـ حسنا .. سنأخذ هذا الأجر ارضاء لمستر سوان ..

ـ اذن فتلك حقائبى .... ولندخل حالا يامستر سوان ... إن لدى فى تلك الزكيبة فريكا من أجود صنف ، اذا كنت تجيئنى بها معك ... وتعال أنت أيضا يا دكتور ..

وأجاب الدكتور ماكفيل : أوه ... كلا ... لا أظننى أستطيع أن اجىء فإنى ذاهب لأطمئن على أمتعتنا . ثم انطلق الى الشارع تحت المطر المنهمر ، وكان يتدفق زخارا غامرا من فتحة الميناء ، بينما بدا الشاطىء المقابل ملفعا بالسحب يكاد لا يستبين ... ومر بشخصين او ثلاثة من الوطنيين ، لا يستر أجسامهم شىء سوى (اللافالافا) ، وقد رفعوا مظلات ضخمة على رؤوسهم وكانوا يمشون باطمئنان ، بخطوات بطيئة متكاسلة ... واذ مر بهم حيوه فى رطانة غريبة وهم يبتسمون .

وعندما رجع الى المنزل ، كان وقت العشاء قد حان تقريبا ، وقد اعدت المائدة فى غرفة الاستقبال ولم تكن فى الواقع غرفة معدة للجلوس ، وإنما كان كل ما فيها ينم عن حرص صاحبها على الظهور بما يحفظ له الكرامة والهيبة .. وكان يتدلى من وسط سقفها ، ثريا كبيرة مغطاة بورق خفيف يحميها من الذباب .

واذ لم يحضر دافيدسن قالت زوجته :

ـ انى لأعلم انه قد ذهب لزيارة الحاكم ... وأحسب أنه قد دعاه للعشاء .

وحملت اليهم فتاة صغيرة من الوطنيين طبقا من شرائح لحم البقر ... وجاء مالك الدار بعد فترة قصيرة ليطمئن الى أن كل شىء على ما يرام ..

وقال الدكتور ماكفيل : ـ يبدو أن النزيلة التى رأيناها ، لا تشترك فى الطعام يا مستر هورن ..

وأجاب التاجر : ـ لقد استأجرت الغرفة دون أكل ... وهى تتدبر أمر أكلها ...

ونظر الى السيدتين بوجه يفيض دعة وتوددا ثم أضاف يقول :

لقد وضعتها فى الدور السفلى ؛ لئلا تكون على الطريق ... وسوف لن تضايقكم بأية حال .

وقالت مسز ماكفيل : ـ أهى ممن كانوا معنا على السفينة ؟؟؟

ـ أجل يا سيدتى ... كانت فى الدرجة الثانية ، وهى ذاهبة الى (آبيا) حيث ينتظرها عمل كصرافة هناك ...

ـ أوه .....

وعندما ذهب مستر هورن قال ماكفيل : ـ لا أظن أنها ستسر كثيرا بأن تتناول طعامها فى الغرفة . فسرعان ما علقت مسز دافيدسن : ـ اذا كانت من ركاب الدرجة الثانية فإنى أحسب إنها قد فعلت ما ينبغى أن يفعله أمثالها ... ولا أدرى بالضبط من تكون يا ترى ؟؟؟؟

ـ اتفق أن كنت موجودا ، عندما جاء بها مدير السفينة ... اسمها : مس تومسون .

وتساءلت مسز دافيدسن : اليست هى التى كانت ترقص مع مدير السفينة الليلة الماضية ؟!

وقالت مسز ماكفيل : لابد أنها هى .. ولقد تساءلت حين رأيتها : ماذا هى يا ترى ؟ ... بدا لى أنها مستهترة نوعا ...

وقالت مسز دافيدسن : ليس نمطا صالحا .. اطلاقا ..

ثم أخذت تتشعّب بهم سبل الحديث .. وبعد أن فرغوا من العشاء وكان قد أعنتهم الاستيقاظ المبكّر ، ومتاعب النهار الذى انقضى ، فتفرقوا ... واستسلموا لنوم عميق ...

وحين استيقظوا فى صباح اليوم التالى ، لم تكن السماء تمطر ، كعهدهم بها أمس ، وان كانت ماتزال غائمة ، والسحب مثقلة بالغيث منخفضة داكنة ، فخرج القوم فى نزهة على الأقدام على الطريق العالى ، الذى بناه الأمريكيون على طول الخليج ... وعند عودتهم الى المنزل ، كان مستر دافيدسن قد جاء لتوه ، وما كاد يراهم حتى قال مهتاجا :

ـ من المحتمل أن نظل هنا اسبوعين .. وقد تناقشت فى ذلك مع الحاكم ، ولكنه قال : أنه ليس هناك ما يمكن صنعه .

وقالت زوجته ، وقد القت عليه نظرة قلقة :

ـ مستر دافيدسن تواق الى أن يعود الى عمله

وقال زوجها ، وهو يمشى ذاهبا آيبا على الشرفة :

ـ لقد غبنا عن العمل عاما كاملا ... وظلت الإرسالية تحت إشراف مبشرّين من الوطنيين .. وانى لشديد القلق أن يكونوا قد تركوا جميع الأمور دون ما ينبغى من ضبط وحزم ... وهم قوم طيبون ، ولا اقول عنهم كلمة سوء .. كلاّ .. فهم يخافون الله ومخلصون ... ومسيحيون صميمون .. بل ان مسيحيتهم لتفوق الكثيرين ممّن يسمون مسيحيين فى بلادنا ... ولكنهم ـ مع ذلك ـ قوم ينقصهم النشاط الى حد يثير الإشفاق ... قد يستطيعون أن يقاوموا مرة ... ولكنهم يعجزون أن يقاموا على طول المدى .. فاذا تركت الإرسالية تحت اشراف أحد من الوطنيين فانك ـ على المدى الطويل ـ ستجد سوء التصرف والفوضى قد تسللتا الى العمل .

ثم وقف المستر دافيدسن ساكنا ، وكان بقامته المديدة النحيلة ، وعينيه الكبيرتين المتألّقتين فى وجهه الشاحب المتهضّم ، مخلوقا مثيرا .. وكان اخلاصه واضحا فيما بدا كالنار المشتعلة من إيماءاته وصوته الهادر العميق وهو يقول :

انى لأتوقّع أن يفصل عملى عن عمل سواى .. ولسوف أعمل ... وأعمل بحزم .. واذا نخرت الشجرة وخوت من نخاعها ، فليس لها إلاّ أن تقطع ، ويلقى بها الى اللهب ..

وجلسوا فى غرفة الاستقبال ، بعد أن تناولوا الشاى فى المساء ، وكان آخر وجبات اليوم ، وعكف النسوة على الإشتغال بالتطريز ... وانصرف الدكتور ما كفيل الى تدخين غليونه بينما انطلق رجل التبشير يتحدث اليهم عن أعماله فى الجزيرة التى يبحر اليها :

ـ يوم ذهبنا الى هناك ، لم يكن لدى السكان أى احساس بالخطيئة ... كانوا يخالفون الوصايا ، واحدة تلو الأخرى ، دون أن يدركوا اطلاقا انهم يقترفون اثما ...

واني لأظن أن ذلك كان أعضل جانب فى عملى ، فقد كان علىّ أن أغرس فى نفوسهم الإحساس بالإثم .

وكان الدكتور ماكفيل وزوجته قد علما من قبل ان دافيدسن قد قضى خمس سنوات فى جزر سليمان قبل أن يلقى زوجته التى كانت مبشرّة فى الصين ، ثم تعارفا فى بوسطن حيث كان كل منهما يقضى جانبا من عطلته مشتركا فى احد مؤتمرات التبشير ... ولّما تزوجا ، انتدبا للعمل فى الجزر التى ظلا يعملان فيها منذ ذلك الحين .

وخلال الأحاديث التى دارت بينهما ، ـ ما كفيل وزوجته ـ وبين مستر دافيدسن ، كانت شجاعته الجامحة ، أبرز ما يسطع من سجاياه ... كان ممن يعتمد عليهم حين يستدعى فى أى وقت الى جزيرة من جزر المنطقة أو اخرى ... ومع أن السفن الكبيرة نفسها ، لا تكون وسيلة مأمونة للنقل بين هذه الجزر فى موسم الأمطار فى المحيط الهادى ، فإنّه كثيرا ما كان يبتعث فى سفينة صغيرة ... حيث يكون احتمال الخطر كبيرا ، ولكّنه لم يتردد فى الذهاب فى حالات المرض والكوارث ... ولكم من مرة قضى ليلة بكاملها يناضل للنجاة بحياته من الغرق ... بل لكم من مرة اعتبرته مسز دافيدسن مفقودا من غرقى المحيط ..

وعّلقت مسز دافيدسن تقول : كثيرا ما اتوسّل اليه ألا يذهب ... أو على الأقل ، أن يتريّث الى أن يهدأ الجو ... ولكّنه لا يستجيب قط .. إنه لشديد الإصرار والعناد .. واذا ما اتخذ قرارا فى أمر ، فلا شيء يمكن ان يثنيه عن قراره مهما كان .

وهنا عقّب مستر دافيدسن : وكيف أستطيع أن أطالب (الوطنيين) أن يضعوا ثقتهم فى الله ، اذا كنت أنا نفسى اخاف أن أفعل ما اطلب منهم أن يفعلوه .. ولكنى لا أخاف ... لا أخاف اطلاقا ... وهم يعلمون انهم اذا بعثوا فى طلبى فى الشدائد التى تلم بهم ، فلابد ان اخف اليهم مادام الأمر فى طاقة البشر ... وهل تظن ان الله يتخلّى عنى وانا فى خدمته ؟.. كلاّ ... أبدا ... فالريح تهبّ بأمره .. والأمواج تهدأ وتثور بإرادته ... ولاراد لقضائه .

وكان الدكتور ماكفيل رجلا يغلب عليه الإحجام والحذر ... فلم يستطع قط ان يألف تساقط القنابل على الخنادق ... وحين كان يجرى عمليات جراحية فى خطوط

القتال الأمامية كان العرق يتصبّب من جبهته ويغشى نظارته ، نتيجة للمجهود الذى كان يبذله ليسيطر على يديه المرتعشتين فرقاً ورعباً من صوت الإنفجارات وهى تتلاحق أثناء عمله ...

ولذلك فقد سرت فى جسمه رعدة وهو يصغى الى رجل التبشير ولم يملك أن يقول :

ـ تمنّيت لو أستطيع أن أقول : « انى لا أخاف الموت اطلاقا »
فاذا برجل التبشير يجيبه :
ـ تمنيت لو استطعت أن تقول : « انك تؤمن بالله »
ولأمر ما ـ فيما يبدو ـ كانت افكار رجل التبشير تعود به الى الأيام الأولى التى قضاها مع زوجته فى جزر المحيط الهادى فقال :
ـ كنت أجلس مع زوجتى ، وكل منا ينظر الى الآخر ، بينما دموعنا تجرى على وجناتنا ... وقد كنا نعمل ليلا ونهارا دون توقف ... ولكن كان يبدو لنا اننا لا نحرز تقدما من أى نوع ... ولست أدرى ماذا كان يمكن أن أصنع لولا وجودها الى جانبى ؟. وعندما كنت أشعر أن قلبى يغوص ضيقا ، وقد اوشكت ان أيأس .. كانت هى تزودّنى بالشجاعة والأمل .

وأغضت مسز دافيدسن منحنية على ما بين يديها من التطريز ، وقد سرى فى وجنتيها الهزيلتين لون باهت ، وترقرقت فى يديها رعشة خفيفة ، وبدت كأنها لاتجد مايسعفها بالكلام .

واستأنف رجل التبشير حديثه قائلا :

ـ لم يكن لنا من نطمع فى عونه .. كنا وحيدين .. وقد فصلت مابيننا وبين أى مخلوق من عشيرتنا ألوف الأميال .. واحدقت بنا فى هذه الجزر دياج وظلمات طاغية عميقة . ولكن حين تفت فى عضدى المتاعب ، وتكاد تصرعنى الهموم ، كانت هى تضع عملها جانبا وتتناول الإنجيل ثم تقرأه لى الى أن يبسط السلام جناحيه الحانيين على ، تماما كالنوم حين يغشى جفنى الطفل .. فإذا أغلقت الكتاب فى النهاية كانت تقول : « سوف ننقذهم .. بلى سوف ننقذهم رغما عنهم .. » فاذا بى اشعر بفيض من القوة

والعزم على المضى فى سبيل الله .. وأجدنى أجيبها قائلا : « بلى .. سأنقذهم .. بل يجب أن انقذهم باذن الله وعونه . » .

وتوقف عن حديثه لحظات .. ثم اتجه نحو المنضدة .. ووقف أمامها كما لو كانت منصة للخطابة وأخذ يقول :

ـ بلغ من فساد أخلاقهم الفطرى وتفسخها الطبيعى أنه لم يكن فى الإمكان حملهم على أن يروا ما هم غارقون فيه من فجور واثم ، فكان علينا أن نجعل مايرونه هم عملا طبيعيا مبرأ من أى احساس بالإثم نجعلهم يرونه خطيئة وفجرا وفسادا وذنبا . ولم يكن مانجعله اثما وخطيئة هو الزنا والسرقة والكذب فحسب ، وإنما هو أيضا عرى الأجسام .. والرقص .. وعدم التردد على الكنيسة .. وقد استطعت .. أجل استطعت أن أجعل من مشى فتاة ما وهى عارية الصدر والنهدين إثما .. ومن ظهور الرجل امام الملأ دون سراويل خطيئة .

وتساءل الدكتور ماكفيل بشيء من الدهشة :

ـ ... ولكن كيف ؟؟

ـ ببساطة .. وضعت عليهم غرامات .. ومن الواضح أن ذلك هو السبيل الوحيد لحمل الناس على إدراك الخطأ فى عمل ما .. وقد وضعت عليهم غرامات اذا لم يحضروا الى الكنيسة .. وغرامات اذا رقصوا .. وغرامات اخرى إذا ظهروا بملابس غير لائقة .. وكانت لدىَّ تعريفة لهذه الغرامات .. ولكل خطيئة جزاء يدفع نقدا أوجهدا .. وبذلك استطعت فى النهاية أن أجعلهم يفهمون ويدركون .

ـ ولكن ألم يرفضوا قط أن يدفعوا هذه الغرامات ؟

ـ وكيف يستطيعون أن يرفضوا ؟

وقالت زوجته ، وهى تزم شفتيها :

ـ يجب أن يكون رجلا شجاعا ذلك الذى يحاول أن يقف أمام المستر دافيدسن

ونظر الدكتور ماكفيل ، الى دافيدسن بعينين زائغتين ، وقد أذهله ماسمع ، ولكنه تردد فى التعبير عن استنكاره .. بينما واصل مستر دافيدسن حديثه قائلا :

ـ يجب ان نتذكر أن الملاذ الأخير كان أنى أستطيع أن اطردهم من عضوية الكنيسة .

ـ ولكن .. ترى هل كانوا يعبأون بذلك ؟؟

وابتسم دافيدسن إبتسامة خفيفة شاحبة .. ومسح إحدى يديه بالأخرى قائلا :
ـ إنهم حينئذ لايستطيعون أن يبيعوا صيدهم .. إذا صاد الرجال فانهم لايجدون من يشترى منهم شيئا .. وهذا معناه الجوع .. بلى .. بلى .. كانوا يعبأون .. بل ويفكرون كثيرا قبل أن يقدموا على المخالفة ..

وعقبت زوجته قائلة :

ـ حدثه عن فرد اولسن ..

وركز الرجل نظراته المستعرة على الدكتور ماكفيل وهو يقول :

كان فرد اولسن تاجرا هولانديا يعيش فى هذه الجزر منذ سنين .. وكان وافر الغنى ولم يسر كثيرا عندما جئنا الجزيرة ، لأن الأمور قبل مجيئنا كانت تسير بالطريقة التى ترضيه اذ كان يقايض الوطنيين صيدهم بما لديه من سلع وخمر .. وكانت له زوجة من أهل الجزيرة ، ولكن عدم وفائه لها كان مفضوحا .. وكان سكيرا مدمنا .

وقد أعطيته فرصة ليستقيم ويصلح من أمره ولكنه رفض ما منحت ، وأبى أن يرى الطريق بل وسخر منى .

وهنا هبط صوت دافيدسن الى قرار عميق ، وهو ينطق كلماته الأخيرة .. والتزم الصمت دقيقة أو دقيقتين .. وكان صمته ثقيلا مشحونا بالوعيد الى أن قال :
ـ ولم تمض سنتان فقط حتى كان رجلا متداعيا .. بل إنقاضا مدمرة .. فقد كل شيء كان قد ادخره خلال ربع قرن من السنين .. لقد حطمته إفلاسا ونضوبا .. واضطر فى النهاية أن يجىء الى صاغرا كمتسول ، وهو يتوسل أن أمنحه مايساعده على الإنتقال الى سيدنى .

وعقبت زوجة رجل التبشير تقول :

ـ لو أنك رأيته حين جاء ليقابل مستر دافيدسن .. كان قبل ذلك رجلا وجيه الطلعة ، قويا ، متين البناء ، مكتنز الجسم . وكان له صوت جهورى ضخم عريض .. ولكنه حين وقف أمام مستر دافيدسن أخيرا ، كان قد فقد نصف حجمه ، وأمسى رجلا هرما متهالكا يرتعش ضعفا وهزالا .

واختلس مستر دافيدسن نظرة الى الليل من حوله .. وكان المطر قد عاد ينهمر مرة أخرى .

وانطلق من الدور الأرضى فجأة صوت ما كاد يسمعه رجل التبشير العتيد ، حتى التفت ينظر الى زوجته فى تساؤل قلق وتطلع متوفز .. ولم يكن الصوت سوى نغمة جشاء صاخبة ترتفع متقطعة من جراموفون .

وسأل دافيدسن قائلا : ماذلك ؟

وركزت مسز دافيدسن نظارتها على أنفها وهى تقول :

ـ إحدى راكبات الدرجة الثانية تسكن غرفة فى البيت .. أظن أن الصوت يأتى من هناك ..

وأصغوا جميعا فى صمت .. وسرعان ماترامت الى أسماعهم حركة الرقص .. وعندما توقف صوت الجراموفون تلاحقت تفجرات زجاجات الشراب وهى تفتح ، وأصوات القوم فى هرجهم وهى تنتعش وتتعالى .

وقال الدكتور ماكفيل :

ـ أظنها تقيم حفلة وداع لأصدقائها فى السفينة .. لأنها ستبحر فى الثانية عشرة أليس كذلك ؟؟

ولم يبد مستر دافيد سن ملاحظة ما .. ولكنه نظر فى ساعته والتفت الى زوجته يسألها :

ـ امستعدة أنت ؟؟

ـ نعم .. أظننى مستعدة فعلا .

وقال الدكتور ماكفيل :

ـ اليس الوقت مبكرا للنوم ؟؟

وأجابته مسز دافيدسن تقول :

ـ مايزال علينا أن نقرأ لفترة من الوقت .. فإننا حيثما نكون لابد أن نقرأ فصلا من الإنجيل قبل أن ننام . ونحن نقرأه مع التفسير والشروح .. ثم ندرس مانقرأ بإمعان وتأمل ولعمرى إنه لمران رائع للذهن .

وتبادل الزوجان تحية المساء .. ثم تركا الدكتور ماكفيل وزوجته وحدهما حيث ظلا دقيقتين أو ثلاثا صامتين الى أن قال الدكتور ماكفيل أخيرا :

ـ أظن انه لابأس بأن أجيء بورق اللعب .

فتطلعت اليه زوجته فى تشكك وتوجس .. وكان حديث دافيدسن وزوجته قد تركها على شيء من القلق ولعلها كرهت أن تقول لزوجها : « أن الأخلق بهما ألا يلعبا الورق مادام من المحتمل أن يدخل رجل التبشير أو زوجته فى اية لحظة » . وحين أحضر زوجها الورق ، ظلت هى ترقبه ـ وهو يتحلل من اناته وصبره ـ وفى نفسها إحساس غامض بالتأثم ..

وأخذا فى اللعب ، بينما ظلت جلبة المرح الصاخب فى الدور الأرضى ترتفع وتجلجل فى جوف الليل .

وكان الجو صحوا بعض الشيء فى اليوم التالى واذ وجد الدكتور ماكفيل وزوجه ، انه قد حكم عليهما بالبقاء فى (باجو باجو) أسبوعين ، فقد أخذا يستعدان للاقامة بأفضل مايستطيعان .. ذهبا الى الميناء .. وأخرجا من حقائبهما مجموعة من الكتب .. وقام الدكتور بزيارة كبير جراحى مستشفى القوات البحرية ، وتفقد معه غرف المرضى وتركا بطاقة للحاكم .. واتفق أن رأيا مس تومسن فى الطريق ، فرفع لها الدكتور قبعته محييا .. فأجابته فى صوت مرتفع : « صباح الخير يادكتور » .. وكانت ماتزال ترتدى نفس الملابس التى رآها ترتديها فى اليوم الماضى .. وكان الفستان الأبيض والحذاء اللامع ـ الأبيض أيضا ـ بكعبيه المرتفعين وعنقه الطويل ، وقد تورمت عليه سمانتا ساقيها السمينتين ، اعجب ماتلحظه العين على مظهر هذه المرأة الغريب .

وعلقت مسز ماكفيل : « لا أحسبها ترتدى ملابس ملائمة .. وأنها لتبدو لى مبتذلة الذوق الى حد كبير » .

وحين عاد الى البيت ، كانت مس تومسن تداعب طفلا أسمر من أطفال التاجر على الشرفة .ورآها ماكفيل فلم يملك أن يقول لزوجته : « قولى لها شيئا .. فانها تعانى وحدة مطلقة هنا ، ويبدو أن من القسوة الى حد ، أن نتجاهلها .. »

وكانت مسز ماكفيل حيية الطبع ، ولكنها تعودت أن تفعل مايطلبه منها زوجها فقالت فى شيء من الغباء ، تخاطب المرأة :

ـ أحسبنا جيرانا هنا .

وقالت مس تومسن :

ـ إنه لشيء مزعج أن يجد المرء نفسه سجينا فى اسطبل كهذا .. ومع ذلك فإنهم يقولون لى : انى مجدودة الحظ اذ وجدت غرفة .. ولعمرى .. لست أدرى ما الـذى يمنعهم أن يشيدوا فندقا ..؟

وتبادلتا بضع كلمات أخرى .. وكان واضحا أن مس تومسن بصوتها الجهورى ، وثرثرتها الفياضة ، راغبة فى الاستمرار فى الحديث ولكن مسز ماكفيل لم تكن لها تلك القدرة على استنبات فنون الحديث وألوانه فقالت : « حسنا .. فإنى أظن أن على أن اصعد الى غرفتى .

وفى المساء عندما جلس الجميع حول مائدة الشاى قال دافيدسن وهو يقتحم الغرفة :

ـ أرى عند تلك المرأة التى تسكن فى الطابق السفلى ، اثنين من البحارة يجلسان معها .. ولست أدرى كيف تعرفت اليهما .

وقالت مسز دافيدسن :

ـ إنها لاتستطيع أن تكون أقل ابتذالا .

وكانوا جميعهم قد ادركهم التعب بعد يوم من فراغ متصل وخمود ثقيل فقال الدكتور ماكفيل : « إذا كنا سنقضى أيامنا المقبلة ، كما قضينا هذا اليوم ، فلست أدرى ماذا سيكون شعورنا فى نهاية الأسبوعين » ؟

وأجاب رجل التبشير : « الشيء الوحيد الذى ينبغـى أن نفعلـه هو أن نوزع ساعات النهار فى مختلف أنواع النشاط .. ولسوف أخصص عددا من ساعات النهار للدراسة .. وعددا آخر للرياضة سواء أكان الجو صحوا أم مطيرا ـ وأنت لاتستطيع الا أن تحس بوجود المطر فى هذا الموسم ـ ثم عددا آخر من الساعات للتأمل الروحى والعبادة » .

وتطلع الدكتور ماكفيل الى صاحبه فى تشكك وقـد ضايقتـه تفاصيـل برنامجـه اليومى .. وكانوا يأكلون طبق اللحم الذى قدّم لهم فى الليلة الماضية ، وقد بدا أنه

الصنف الوحيد الذى يجيد الطاهى إعداده . وعندئذ بدأ صوت الجراموفون يرتفع من الطابق السفلى ، وما كاد ، حتى نهض دافيدسن ثائرا ، ولكن دون أن يقول شيئا .. وطغى صوت الرجال اذ كان ضيوف مس تومسن يشتركون فى اداء أغنية مشهورة ، ولكن صوتها مالبث أن سمع جهوريا أجشاً كالمعتاد وقد تخلل كل ذلك الكثير من موجات الصخب والضحك والدعابة .. ووجد الأشخاص الأربعة الذين يقطنون فى الطابق العلوى أنفسهم مضطرين الى الإصغاء الى تصافق الكؤوس وصرير الكراسى ، اذ جاء قوم آخرون مما يدل بوضوح على أن مس تومسن تقيم حفلة صاخبة . وقالت مسز ماكفيل ـ فجأة ـ وهى تقطع الحديث الدائر بين زوجها ورجل التبشير : « لست أدرى كيف تستقبلهم جميعا » .

ودل ذلك على الاتجاه الذى كانت تحلق فيه أفكارها ، كما أكدت اختلاجة وجه دافيدسن أن عقله ـ وان كان يتحدث فى شؤون علمية ـ كان مشغولا بنفس الاتجاه .. بينما كان الدكتور ماكفيل يتحدث عن تجاربه الطبيـه فى جبهـة الفلانـدرز ، نهض دافيدسن فجأة على قدميه وقد ندت عنه صيحة انفعال وبهتت زوجته وهى تلتفت اليه وقالت : ماذا بك .. ماذا بك يا الفرد ؟؟ « فأجاب :

ـ بالطبع .. لم يحدث لى ذلك قط من قبل .. انها خارجة من (لويلى) .
ـ لايمكن أن تكون كذلك .

ـ لقد ركبت من هونولولو .. ذلك واضح .. وهى تمارس تجارتها هنا .. أجل هنا . ونطق الكلمة الأخيرة بلهجة احتقار بالغ .

وتساءلت مسز ماكفيل : « وما هى لويلى هذه ؟؟ »

وأدار نحوها عينيه المشتعلتين ، وارتعش صوته احتداما وهـو يقـول : « منطقـة الطاعون فى هونولولو .. منطقة الضوء الأحمر .. إحدى مناطق العار فى حضارتنا .. »

وتقع لويلى على طرف من مدينة هونولولو .. ويذهب المرء اليها عبر شوارع فرعية عن طريق الميناء ـ فى الظلام ـ وعبر جسر واهن متأرجح الى أن يبلغ طريقا مهجورا ، كله أخاديد وجروف ، ثم اذا به فجأة فى دائرة الضوء ، حيث يجد موقفا للسيارات على جانبى الطريق وصالات مضيئة مبتذلة التنسيق والزخرف ، تضج كلها بألحان البيانو الميكانيكى الصاخبة ، ثم حوانيت الحلاقين وبائعى السجاير ، وحيث الجو كله يموج

بالحركة الهامسة ، وينم عن الملاذ المتوقعة ، ثم اذا بالطريق يلتوى ليوغل فى زقاق الى اليمين ، أو فىٰ آخر الى اليسار ـ لأن الطريق يقسم (لويلى) الى شطرين ، ليجد المرء نفسه أخيرا فى المنطقة .. فهناك صفوف منسقة من البيوت الخضراء ، تتخللها ممرّات عريضة مستقيمة ، وقد اقيمت فيما يشبه مدينة حدائق يبلغ من ترتيبها وتناسقها المتقن ومن نظامها واناقتها ان تبعث فى النفس إحساسا بالتهيّب المتهكّم .. اذلن يبلغ مطلب اللذة ، ما بلغه فى هذه المنطقة من تنظيم وتنسيق .. وقد أضيئت جميع الممرات بضوء خافت رقيق ، ولكنها تبدو مظلمة لولا تلك الأضواء التى تتساقط من النوافذ المفتوحة فى البيوت .. وفى هذه الممرات يتسكع الرجال متطلّعين الى النساء الجالسات فى النوافذ ، يقرأن ، أو يشتغلن بالحياكة ونحوها دون أن يلتفتن الى أحد من المارة .. والرجال هنا ، كالنساء ، من أجناس مختلفة ، أمريكيون .. بحارة من السفن الراسية فى الميناء ، ومجندون سكارى من سفن الأسطول .. وجنود من الفرق العسكرية .. بيض .. وسود ،، ممّن يعسكرون فى الجزيرة .. ثم يابانيون يمشون مثنى وثلاث .. وصينيون فى أثوابهم الطويلة .. وآخرون من جزر هاواى ، وجزر الفليبين فى قبعاتهم العريضة ، والجميع يمشون ـ كالعالم المحيط بهم ـ فى صمت وضيق .. ولا غرو .. فإن للشهوة بؤسها وفى اللذة مكامن أحزانها .

وتابع دافيدسن حديثه المحتدم الهادر : « لقد كانت (لويلى) أشد فضائح المحيط الهادى خزيا .. وقد ظلت ارساليات التبشير ، تنظر اليها فى قلق طيلة سنوات ، ثم اضطلعت الصحافة المحلّية بالأمر ، ومع ذلك فقد رفض رجال الأمن أن يتحرّكوا .. وأنت تعرف طبعا حجتهم . فهم يزعمون أن لاسبيل الى تجنّب هذه الوصمة .. ولذلك فان الأولى هو أن تحدد لها منطقة وأن تراقب .. بينما الحقيقة انهم كانوا ينتفعون بوجودها .. أجل ينتفعون .. اذ كانوا يتقاضون ثمن إغضائهم عن مخازيها من أصحاب الصالات ومن طلاب اللذة بل ومن النساء أنفسهن .. ولكنهم اضطروا آخيرا أن يتحركوا .

وقال الدكتور ماكفيل : « إنى اقرأ عن ذلك فى الصحف التى جاءتنا فى السفينة من هونولولو .

ـ بلى .. بلى .. فان (لويلى) بآثامها وبما فيها من خزى وعار ، قد ازيلت من

الوجود وقد قدم جميع سكانها الى المحاكمة .. ولست أدرى لماذا لم أفهم لتوى ، من تكون تلك المرأة .

وقالت مسز ماكفيل : « إنى لأذكر ـ اذ أسمعك تتحدث عن الموضوع الآن ـ إنى رأيتها تصعد الى السفينة ، قبل أن تغادر الميناء ببضع دقائق فقط .

وهنا صرخ دافيدسن بغضب : « كيف ؟؟ كيف تجرؤ على المجىء الى هنـا .. لا ... سوف لن أسمح بذلك أبدا .. » .

وسرعان مانهض واتجه نحو الباب .

وتساءل الدكتور ماكفيل : « ماذا تراك تهم بأن تفعل ؟؟ » .

ـ ماذا تتوقّع أن أفعل ؟؟ سأضع للأمر نهايته .. سوف لن اجعل هذا البيت يتحول الى .. الى ..

وبحث عن كلمة لاتخدش أسماع السيدتين .. وكانت عيناه تبرقـان ، ووجهـه الشاحب يزداد شحوبا .. وقال الدكتور ماكفيل : « يبدو ان هناك ثلاثة أو أربعة رجال عندها .. أفلاتظن أن دخولك الآن عندهم فيه شيء من الاندفاع ؟

والقى عليه رجل التبشير نظرة ازدراء وصلف ، واندفع خارجا من الغرفة دون أن ينبس بكلمة .

وقالت زوجته : « انك لم تعرف مستر دافيدسن الا قليلا بعد ، إذا كنت تظن أن الخوف من الخطر يمكن أن يعوقه عن اداء واجبه » . ثم جلست تصغى ـ ويداهـا متشابكتان فى ثورة وانفعال وقد علت عظمتى وجنتيها بقعة لونها الغضب ـ الى مايوشك أن يقع بانطلاق زوجها الى الطابق السفلى . وأصغى معها الجميع .. وسمعوه وهو ينحدر على السلالم الخشبية كالأعصار ويفتح باب الغرفة فى عنف .. توقّف الغناء فجأة ولكن الجراموفون ظل يرسل لحنه المبتـذل ثم سمعـوا صوت دافيدسـن ، ثم جلبـة وضوضاء .. اعقبها صوت سقـوط جسـم ثقيـل على الأرض .. وتوقفـت موسيقـى الجراموفون فقد بدا أنه قذف به على الأرض .. ثم صك أسماعهم صوت دافيدسن مرة اخرى دون أن يفهموا مايقول أعقبه صوت مس تومسن عاليا جهوريا ، لاحقته ضجة مختلطة الأصوات ، كما لو كان عدد من الأشخاص يصرخون بملء حناجرهم

معا . وندت عن مسز دافيدسن شهقة خافتة ، واشتد تضاغط يديها المتشابكتين فى عنف . وتنقلت نظرات الدكتور ماكفيل بين زوجته وبين مسز دافيدسن . ولم يشأ أن يذهب الى الطابق السفلى ولكنه لم يدر ماذا كانتا تتوقعان أن يذهب . ثم حدث شيء ضج كأنه صراع ، وأخذت الضوضاء تزداد وضوحا ، وبات أرجح الاحتمالات أنهم يلقون بالمستر دافيدسن خارج الغرفة .. وأكد ذلك صفق الباب .. وساد الصمت لحظات ثم سمعوا وقع أقدامه وهو يصعد السلالم مرة أخرى ويذهب الى غرفته رأسا .. وهنا قالت زوجته : « أظن أنى سأذهب اليه » ونهضت ثم خرجت من الغرفة وقالت مسز ماكفيل : « اذا كنت تريديننى لأمر ما فنادنى » ثم أردفت بعد ان انفردت بزوجها : « أرجو ألا يكون قد أصيب بأذى » .. وعلق الدكتور ماكفيل : « كان الأخلق به أن يعنى بمصلحته » وجلس الزوجان فى صمت بضع لحظات ثم نهضا معا ، وهما يسمعان صوت الجراموفون ينطلق مرة اخرى ، ومعه أصوات الاحتقار والسخرية المنكرة ، تتصايح بألفاظ إحدى الأغانى بالغة للبذاءة والفحش .

وفى اليوم التالى كانت مسز دافيدسن شاحبة بادية التخاذل والانهيار ، تشكو من الصداع وفى صوتها نبرة التداعى والهرم . وقد افضت الى مسز ما كفيل ان زوجها لم ينم الليلة الماضية اذ قضاها كلها وهو فى حالة قلق عاصف ، وقد غادر فراشه فى الساعة الخامسة ثم خرج . وقالت أنهم قذفوه بزجاجة بيرة ، وأن ملابسه كلها بقعت وتلوثت ... ولكن التمعت عيناها ببريق خاطف وهى تتحدث عن مس تومسن قائلة : « لسوف تندم هذه المرأة كثيرا على تصرفها مع مستر دافيدسن ... صحيح أن له قلبا رائعا ، ولم يلجأ اليه مخلوق فى مشكلة ، الا واستجاب وطيّب خاطره ، ولكن لا سبيل أبدا الى تسامحه فى (الخطيئة) واذا ما استثير غضبه العادل مرة ، فإن تصرفه يكون رهيبا .

وتساءلت مسز ماكفيل : « ولماذا ؟؟ وماذا تراه سيفعل ؟؟ »

ـ لست أدرى على التحقيق .. ولكنى لا أستطيع أن أقف فى سبيله أبدا .

وسرت فى جسم مسز ماكفيل رعدة ... اذ كان فى أسلوب هذه المرأة الضئيلة الشاحبة وهى تتابع تأكيدها الغلاّب عمّا سيقوم به زوجها ، شيء من صدق الإنذار والوعيد .

وكانت المرأتان على أهبة الخروج معا فى ذلك الصباح ، فاخذتا تهبطان السلالم

جنبا الى جنب ، وكان باب غرفة مس تومسن مفتوحا فرأتاها ، فى قميص النوم ، وهى تطهو شيئا فى طبق . وهتفت اذ رأتهما : (صباح الخير ... ترى هل المستر دافيدسن أحسن حالا هذا الصباح ؟) ولكنهما مرّتا بها فى صمت شامختين بانفيهما ، كأنهما لا تحسان لها وجودا بالمرة ... واحمر وجهاهما عندما صعقتهما بضحكة ساخرة متقصّعة .. فلم تملك مسز دافيدسن الاّ أن تلتفت اليها فجأة وهى تقول :

ـ حذار ... حذار أن تجرئى على الكلام معى ... وتالله لئن اهنتينى ، فلسوف ينتهى بك الأمر الى الخروج من هذا المكان .

ـ ولكن قولى لى .. هل طلبت أنا من المستر دافيدسن أن يزورنى هنا .؟؟؟

وأسرعت مسز ماكفيل تهمس لصاحبتها قائلة : « لا .. لا تجيبيها »

ولكن مسز دافيدسن اندفعت قائلة : « وقحة ... وقحة ... » وكاد غضبها يخنقها .

وفى طريق عودتهما الى المنزل رأتاها تتجه الى الميناء ، وقد ارتدت أبهى ما لديها من ثياب وحلى . وكانت قبعتها الكبيرة البيضاء ، بازهارها المبتذلة الرخيصة أسوأ ما ينتقد ويثير من شكلها ... وهى تمر بهما .. وتجهّم بحّاران امريكيان كانا يقفان عندما مّرتا بهما وعلى وجهيهما نظرة من جليد ... وقد استطاعتا أن تدخلا المنزل قبل أن يعود المطر الى الهطول مرة أخرى .

وقالت مسز دافيدسن وهى لا تكاد تلتقط أنفاسها ، وفى سخرية بالغة المرارة : « أحسب أن ملابسها الجميلة ستتلف » . ولم يعد دافيدسن الى المنزل الى ان أوشكوا على الفراغ من تناول العشاء . وكانت جميع ملابسه مبتلة ، ولكّنه لم يشأ أن يبدلها . وجلس مكتئبا صامتا ... ولم يأكل أكثر من بضع لقيمات صغيرة . ونهض بغتة عندما اشتد هطول المطر .. وعندما قّصت عليه زوجته خبر اشتباكهما مع مس تومسن لم يجب بشىء . وكان عبوسه الذى اشتد عمقا هو وحده الذى دل على أنه سمع ما تقول .. وتساءلت زوجته : « الا تظن أن علينا أن نحمل مستر (هورن) على ابعادها من هنا ... اننا لا نستطيع أن نسمح لها باهانتنا .. فعقب الدكتور ماكفيل قائلا : « لا يبدو أن هناك أى مكان يمكن أن تأوى اليه » .

ـ تستطيع أن تعيش فى بيت واحد من الوطنيين

ـ أكواخ الوطنيين فى مثل هذا الجو يصعب أن تكون مريحة .

وسرعان ما أجاب دافيدسن يقول : « لقد عشت فى كوخ من هذه الأكواخ سنين طويلة .

وعندما دخلت الخادمة الصغيرة بطبق الموز المقلو ـ وهو صنف الحلوى الوحيد الذى يقدم يوميا ـ التفت اليها دافيدسن قائلا : « اسألى مس تومسن : متى يكون من الملائم أن أراها .

وسألته زوجته : ولماذا تريد أن تراها يا الفرد ؟؟؟
ـ إن واجبى يحتم أن أراها .. لا أريد أن أقوم باجراء ضدها قبل أن أتيح لها كل فرصة ممكنة .

ـ انك لا تعرف ما هى هذه المرأة ... ستهينك حتما .
ـ دعيها تهن .. بل دعيها تبصق فى وجهى .. ويجب ان ابذل ما يسعنى من جهد لانقاذ هذه الروح ..
وترددت على مسمع مسز دافيدسن ضحكات المرأة ساخرة متقصعّة فقالت :
ـ لقد ذهبت بعيدا ... أكثر مما ينبغى .

والتمعت عيناه بغتة .. وعاد صوته ناعما رطبا .
وعادت الخادمة الصغيرة تقول : « مس تومسن تقدم تحياتها وتقول : « مادام مستر دافيدسن المبجّل لا يجىء فى ساعات العمل فانه يسرّها أن تقابله فى أى وقت يشاء »
وتلقت الجماعة الرسالة فى صمت كالصخر . واستطاع الدكتور ماكفيل أن يمحو عن شفتيه أثر الابتسامة التى أضاءتها قليلا ، وكان يدرك ان زوجته قد تتشاجر معه لو بدا منه ما يدل على أنه وجد فى وقاحة مس تومسن ما يدعو الى الابتسام .

وفرغوا من العشاء أخيرا فى صمت . وعندما نهضوا عن المائدة انصرفت السيدتان الى عملها ، وكانت مسز ماكفيل تحوك مسلاة اخرى ، مما لا حصر له من المطّرزات التى ظلت تحوكها منذ بدأت الحرب ... واشعل الدكتور غليونه ، بينما ظل دافيدسن فى كرسيّه يحملق فى المنضدة بعينين شاردتين ... ثم نهض فى النهاية دون أن ينبس بحرف . وغادر الغرفة ، وسمعوه يهبط السلالم الخشبية ... ثم سمعوا صوت مس تومسن المحتدم وهى تقول عندما طرق بابها : « ادخل » .

وبقى معها ساعة تقريبا ظل الدكتور خلالها يرقب المطر الذى كان يهطل بغزارة وعنف بدأ يعصفان بأعصابه ... انه لم يكن كمطرنا الانجليزى الناعم الذى يسقط بلطف على الارض ، وانما كان شيئا عنيفا جبارا مخيفا ، لم يكن يهطل فى الواقع ، وانما كان يتدفق تدفقا كأنه طوفان ينحدر من السماء الى الأرض .. وكان يصخ السطح من الصاج المضلّع باصرار مستديم يعصف بثبات المرء واتزانه كأنّه مارد مجنون يبلغ من ضيق المرء بجبروته ان يحس ضرورة للصراخ إن لم يكف ولكن سرعان ما يخالجه شعور بالتخاذل والعجز ، كأنما عظامه نفسها قد لانت وتداعت وعندئذ فليس فى وسعه الا الاستسلام اليائس الحزين .

وأدار الدكتور ماكفيل رأسه ملتفتا عندما عاد رجل التبشير .. ونظرت اليه المرأتان وهو يقول : « لقد اتحت لها كل فرصة ممكنة ... نصحتها بالتوبة .. ولكنها شيطان رجيم » وتوقف لحظة ، ورأى الدكتور ماكفيل عينيه تظلمان ووجهه الشاحب يتقلص عبوسا وكلوحا .

وواصل ما قطع من حديثه قائلا : « والآن سأستعمل السياط التى طرد بها السيد المسيح الصيارفة والمرابين عن معبد العلى الأعلى ... واخذ يذرع الغرفة مجيئا وذهابا مغلق الفم ، مقطب الحاجبين ، ثم هتف : « لو ذهبت الى اقاصى الأرض فسوف أتبعها» ثم استدار بحركة مباغتة وخرج من الغرفة مسرعا واسع الخطا .. وسمعوه ينزل السلالم مرة اخرى ... وقالت مسز ماكفيل : « ماذا تراه سيفعل ؟؟؟ » وقالت مسز دافيدسن وهى تخلع نظارتها تمسحها : « لست أدرى .. ولا أوجه اليه قط سؤالا عندما يكون فى خدمة الرب . فتنهدت مسز ماكفيل وهى تقول : « ولكن ما هى المسألة ؟؟؟ » فأجابتها مسز دافيدسن :

ـ يكلف نفسه رهقا ... وهو لا يعرف قط كيف يرحم نفسه .

* * *

وعرف الدكتور ماكفيل أولى نتائج الإجراءات التى شرع يتخذها رجل التبشير ضد مس تومسن من صاحب الدار التى يسكنونها . فقد استوقف هذا ، الدكتور ما كفيل ، وهو يمر بدكانه ، وخرج اليه ليحادثه فى المنحنى ،وفى وجهه ما ينم عن الانزعاج والضيق فقال :

ـ ان مستر دافيدسن المبجّل ثائر عليّ لأنى سمحت لمس تومسن أن تسكن غرفة هنا ولكنى لم أكن أعلم ماذا هى عندما أجرتها الغرفة ، لأنى عندما يجيئنى الناس يطلبون استئجار غرفة ، فان كل ما يهمنى أن أعرفه هو مقدرتهم على الدفع . وقد دفعت لى مس تومسن أجرة غرفتها لمدة اسبوع سلفا .

ولم يشأ الدكتور ماكفيل أن يورط نفسه فى شيء فقال : « انه بيتك رغم كل شيء ... وإننا لنشكر لك صنيعك بقبولنا فيه » .

وحدّق فى وجهه (هورن) بتشكك ، إذ لم يكن واثقا بعد من الحد الذى يقف عنده ماكفيل فى تحيّزه أو حياده بالنسبة لرجل التبشير ... ثم أردف يقول بتردد : « لشد ما يحشر المبشرّون أنوفهم فى هذا الأمر او ذاك ... وهم إذا ما بداهم ان يدسوّها فى حياة أو تصرفات تاجر ، فليس أمامه الا أن يغلق دكانه ثم يغادر .

ـ هل طلب منك أن تخرجها من البيت ؟؟

ـ كلا ... لقد قال انه لا يستطيع أن يطلب منى اخراجها مادامت تسلك سلوكا مرضيا وقد وعدته ألا تستقبل أحدا ... كنت عندها الآن وأخبرتها .

ـ ولكن ... كيف تلقت الخبر ؟؟

ـ بأسوأ ما ينتظر .

وتلوى مستر هورن فى بذلته البالية معبّرا عن قلة حيلته إذ وجد فى مس تومسن عميلا خشنا .

وقال الدكتور ماكفيل : « ولكنى أحسبها ستغادر المكان .. ولا أخالها تود البقاء هنا اذا لم يكن فى وسعها أن تستقبل أحدا . »

ولكن لا يوجد مكان يمكن أن تذهب اليه الا بيوت الوطنيين ... ولن تجد الآن من يقبل منهم إسكانها لديه .. كلا ... لن تجد الآن من يقبلها بعد أن انشب المبشرون مخالبهم فيها .

والقى الدكتور ماكفيل نظرة على الامطار التى ما تزال تتدفق وتصخب ، ثم قال : (حسنا .. لا أظن أن هناك جدوى من انتظار أن تصحو السماء ...

وفى ذلك المساء عندما جلسوا فى غرفة الاستقبال كعادتهم منذ حلوا بهذا المكان ، تحدث اليهم دافيدسن عن أيامه الاولى فى الكلية ، حيث لم يكن له من ينفق عليه ، فكان يشق طريقه الى مستقبله بان يعمل أثناء العطلة .. وكان الصمت يسود الطابق السفلى ، وقد جلست مس تومسن وحيدة فى غرفتها الصغيرة ولكن سرعان ما صك أسماعهم صوت الجراموفون ، ومع أنها قد أدارته ورفعت صوته محتدما مجلجلا لتخدع وحدتها وعزلتها ، فان اللحن الذى انساب فى جو البيت كان حزينا نائحا ، كأنه استغاثة تطلب النجدة من مجهول . ولم يكن فى هذه المرة من يغنى معه .. ولم يلحظ ذلك دافيدسن اذ كان فى أوج حماسه للاخبار التى يقصها عليهم عن نفسه .. وظل يواصل حديثه دون ان يطرأ على ملامحه تغير ما ، بينما ظل الجراموفون يبعث انغامه دون توقف الا ريثما تبدل مس تومسن اسطوانة باخرى ، كأنما الصمت الذى يلف المكان والليل ، قد شد أعصابها وترها فلم تجد ما تخفف به من وحشتها سوى هذا الجراموفون . وكان الجو رطبا خانقا .. وعندما ذهب الدكتور ماكفيل وزوجته الى فراشهما لم يسعهما أن يناما ، بل ظلا مضطجعين جنبا الى جنب لا يغمض لهما جفن ويملأ سمعيهما طنين البعوض البغيض .. وهمست اخيرا مسز ماكفيل تقول : (ما ذاك) ؟؟ وكانا قد سمعا صوتا ,.. وصوت دافيدسن على التحقيق يتسلل اليهم عبر الحاجز الخشبى بين الغرفتين . وقد استمر فى اصرار غريب ، ورتيب مفعم بالإخلاص والحماس .. كان يدعو الله بصوت مرتفع ان ينقذ روح المس تومسن .

* * *

وانقضى يومان او ثلاثة ايام ، ولم تعد مس تومسن تبتسم او تحييهم بلهجتها الساخرة كما كانت تفعل كلما مروا بها . وإنما كانت تمر شامخة بانفها فى الهواء كأنها لا تراهم ، وعلى وجهها المزوق عبوس وتجهم .

وقال مستر هورن انها حاولت أن تعثر على مأوى فى مكان آخر ولكن محاولتها باءت بالفشل . ومع انها ظلت كل مساء تدير الجراموفون ، وتبدل اسطوانة باخرى ، الا أن التظاهر بالمرح واصطناعه لم ينجحا فى إخفاء حقيقة ما كانت تعانيه .. كان للساعات التى تمر بطيئة خاوية ايقاعها المتكسر الحزين ، كأنه رقصة اليأس الشاحب الثقيل .

ويوم الاحد ، حين شرعت تدير الجراموفون باول اسطوانة اوفد دافيدسن اليها مستر هورن ، يرجوها أن تكف فى الحال .. لأنه (يوم الرب) .. فاختنق صوت الأغنية على التو .. واطبق الصمت على البيت كله ، يكاد لا يزحزح ثقله الرابض إلا الامطار وهى تصخ السقف من الصاج المضلع ، فى عنادها المألوف الذى لا ينهزم ، واصرارها الذى لا يتخاذل او يكل .

وقال مستر هورن يخبر ماكفيل فى اليوم التالى : لا أظنها غافلة عما يراد بها ، وما سوف يواجهها به مستر دافيدسن ، وهذا ما يروعها .

وكان الدكتور ماكفيل قدلمحها ذلك الصباح ، وبدا له أن ملامحها المتغطرسة قد تبدلت .. وكان فى وجهها ما ينم عن إحساسها بالحبل الذى يتلوى ليلتف حول عنقها . وأولاه مستر هورن نظرة جانبية كأنه يقول له : (هل ترى ؟؟) ثم قال : (اظنك لا تدرى ماذا يهم مستر دافيدسن بأن يفعل بها ..

كلا لست أدرى ..

وكان غريبا أن يوجه اليه مستر هورن ذلك السؤال اذ كانت لديه هو ايضا فكرة عن أن رجل التبشير كان يعمل فى الخفاء .. كان يعتقد أنه يحوك حولها شبكة يمسك بخيوطها فى كثير من الحنكة والخبرة والدهاء ، بحيث لن يكلفه الأمر ، عندما يفرغ من تدبيره أكثر من أن ينشط العقدة ، فاذا الفريسة بين يديه .

وقال مستر هورن : لقد طلب منى أن أخبرها أنها حالما ترغب فى رؤيته ، فليس عليها الا أن تبعث اليه فيحضر .

ـ وماذا قالت عندما أخبرتها بذلك ؟؟

ـ لم تقل شيئا . فانى لم انتظر جوابها .. لقد قلت لها ما طلب ان اخبرها به ثم خرجت .. ولكنى أحسبها كادت تهم بالبكاء .

ـ لا أشك فى ان الوحدة قد عصفت بأعصابها .. ثم هذه الامطار .. انها وحدها كفيلة بان تبعث على الجنون .. ولكن قل لى : اما تكف الامطار عن الهطول فى هذا المكان اللعين ؟ ؟ ؟

ـ بل تظل تهطل باستمرار فى موسم الامطار .. ويبلغ عندنا ثلاثمائة بوصة فى

اليوم .. والسبب هو تكوين الخليج ... يبدو وكأنه يستدرج الامطار من أنحاء المحيط الهادى كلها .

ـ اللعنة على تكوين الخليج وشكله .

ثم حك الدكتور ماكفيل لدغات البعوض فى جلده ، وخالجه احساس بالضيق من كل شيء حوله .

* * *

وعندما انقطع هطول الامطار فجأة ، وأشرقت الشمس ، كان الجو كله كحاضنة من حواضن التفريخ الصناعى ، خانقا للانفاس ، لزجا محتقنا يشيع فى النفس احساسا غريبا بان كل شيء حول المرء يتلمظ عنفا ووحشة . وقد بدأ الوطنيون من سكان الجزيرة الاصليين عندئذ بما على وجوههم من وشم وتمثيل ، وبشعر رؤوسهم المخضب ـ كأن فى مظهرهم شيئا يوحى بالتوجس والشر ، وحين كانوا يتمتمون برطانتهم الغريبة ، وهم يمشون حفاة خلف المرء فانه لا يملك الا أن يحس بغريزة الحذر تستيقظ فى حواسه ، وتحمله على أن يلتفت مترقبا الى الوراء إذ يخيل اليه انهم قد يسرعون فيطعنونه بسكين طويلة بين اللوحين فى ظهره ولم يكن فى مقدور المرء أن يدرك كنه الافكار السوداء التى تتوارى وراء حمالقهم البيضاء الواسعة .. وكانت فيهم مشابه طفيفة من المصريين القدماء الذين نرى رسومهم على جدران المعابد ، وفى هيئتهم ما يبعث الرعب من المجهول الضارب أعماق القدم والعفاء .

وظل رجل التبشير يجيء الى البيت ثم يخرج ويغيب ... وكان واضحا انه مشغول بامر هام ، ولكن الدكتور ماكفيل وزوجته لم يستطيعا أن يتكهنا بما يشغله . وقال مستر هورن للدكتور : ان دافيدسن يقابل الحاكم كل يوم وسمع مرة يقول عن الحاكم نفسه : يبدو كانه يتمتع بالكثير من مضاء العزيمة .. ولكن عندما يصل الأمر الى المحز يتخاذل . . فعقب الدكتور ماكفيل مازحا : (اظن أن ذلك يعنى أنه لا يريد أن يفعل ما تطلبه منه بالضبط) ولم يبتسم رجل التبشير للدعابة ، ولكنه قال : (انما اطلب منه أن يفعل الواجب ولا ينبغى أن يستمال المرء لأداء واجبه) ..

ـ ولكن الناس ، يا مستر دافيدسن يختلفون فى تحديد مفهوم الواجب .

ـ فإذا أصيبت قدم إنسان بالتعفن ، فهل تطيق أن ترى من يتردد فى بترها ؟ ؟

ـ ولكن الإصابة بالتعفن حقيقة .

ـ والشــــر

وسرعان ما ظهر ما كان يحوكه دافيدسن فى الخفاء .. فقد كان أربعتهم قد فرغوا من تناول الغداء ، ولم يتفرقوا بعد للقيلولة التى يضطر اليها السيدات والدكتور اذعانا لطبيعة الجو الحار ولا يمارسها دافيدسن ـ حين فتح الباب فجأة ، ودخلت منه مس تومسن وأدارت عينيها فى الغرفة ثم اتجهت نحو دافيدسن وهى تقول :

ـ قل لى أيها الجرذ الحقير .... ما الذى ظللت تقوله للحاكم عنى ؟ ؟ وكانـت ترتعش ثورة وغضبا . وساد الصمت لحظة ، وعند ئذ تحرك دافيدسن ودفـع نحوهـا كرسيا ، وهو يقول :

ـ أما تفضلين أن تجلسى ، يا مس تومسن .. كنت أهم بأن اتحدث اليك حديثا آخر ..

ـ أنت أيها النذل المنحط ..

ثم انفجرت بطوفان من الشتائم القذرة الشنيعة بينا ظل دافيدسن لا يحول عنها عينيه ثم قال :

ـ لا تهمنى الشتائم التى تمطريننى بها يا مس تومسن .. ولكنى أرجو أن تلاحظى أن السيدات جالسات .

وكانت دموعها الآن تغالب ثورتها الجامحة وكان وجهها محمرا محتقنا ، كأنها تختنق . وسألها الدكتور ماكفيل : (ما الذى حدث ؟ ؟) .

ـ جاءنى الآن موظف من الحاكم يقول : إن على أن أغادر الجزيرة فى السفينة التالية ..

ولم تختلج عضلة فى وجه رجل التبشير .. ولم تلتمع عيناه ، بل ظل وجهه جامدا خاليا من أى تعبير ، كما ظلت عيناه لاتنمان عن شيء مما يدور فى نفسه .

ـ من الصعب أن تنتظر من الحاكم أن يسمح لك بالبقاء هنا مع الظروف التى تحيط بك .

ـ أنت الذى فعلها ..

ثم صرخت قائلة : بلى ... لا تستطيع أن تخدعنى .. أنت الذى فعلها ..

ـ لا أريد أن أخدعك . فقد اهبت بالحاكم أن يتخذ الاجراءات الممكنة التى تتفق مع التزاماته .

ـ لم لا تتركنى وشأنى ؟ .. ما الذى بدا لك منى ؟ .. لم اؤذك بشىء .

ـ كونى متأكدة تماما ، انك لو أذيتينى لكنت آخر انسان يمكن أن يستاء منك .

ـ أتراك تظن انى أريد البقاء فى هذا المكان اللعين ؟ ؟

ـ فما وجه الشكوى اذن ؟؟

وندت عنها صيحة بكلمة لم تفهم ، واندفعت خارجة من الغرفة . وساد الصمت فترة قصيرة ، قطعه رجل التبشير أخيرا بقوله :

ـ إنه لمماً يبعث على الارتياح حقا ان يشعر المرء بان الحاكم قد تحرك أخيرا ، وهو الرجل الضعيف المتردد . فلقد قال انها لن تظل هنا اكثر من أسبوعين وإنها إذا واصلت سفرها الى (آبيا) فان الأمر يكون من اختصاص القضاء البريطانى ، وليس ذلك من اختصاصه فى شىء .

ثم نهض رجل التبشير على قدميه بغتة ، وأخذ يوسع خطاه جيئة وذهابا فى الغرفة واستأنف حديثه يقول :

ـ ما أعجب الطرق التى يلجأ اليها رجال السلطة ، وهم يتحدثون عن الآثام التى تحدث فى الخفاء حديثهم عن شىء لم يعد له وجود بالمرة .. مجرد وجود هذه المرأة فضيحة .. ..ولا يعالج الأمر اطلاقا بنقلها الى جزيرة أخرى من جزر المحيط .. ولذلك فقد تحدثت اليه أخيرا بصراحة ، وتناولت الموضوع من أقصر الطرق .. وبهذا استطعت أن أحمله على أن يتخذ خطوة . وتجمع حاجباه منحدرين الى عينيه ، وهو يتحدث عن الحاكم . وبرزت ذقنه بروزا جعله يبدو صارم العزيمة ، بالغ القسوة والعنف .

وسأله الدكتور ماكفيل : (ماذا تقصد) ؟؟

ـ إن ارساليتنا ليست منعدمة النفوذ تماما فى واشنطن . وقد ألمحت الى الحاكم انه لن يحمد العواقب ، إذا قدمت فى حقه شكوى عن الطريقة التى يعالج بها الامور هنا .

وقال الدكتور ماكفيل :

ـ ومتى تقرر أن تغادر المرأة الجزيرة ؟ ؟

ـ سفينة سان فرانسيسكو ، تصل الى هنا من سيدنى يوم الثلاثاء ، وهى ستبحر عليها . كل ذلك خلال خمسة ايام اخرى .

وفى اليوم التالى عندما كان الدكتور ماكفيل راجعا من المستشفى حيث كان يقضى معظم فترة الصباح من كل يوم تزجية للفراغ ، اعترض سبيله مستر هورن ـ صاحب المنزل ـ وهو يصعد السلالم وقال : (اذا سمحت) .. ان مس تومسن مريضة . فهل تتكرم برؤيتها ؟؟

ـ بكل تأكيد

ومشى هورن أمامه الى غرفتها ، حيث وجداها جالسة على المقعد فى استرخاء . ولم تكن تقرأ او تحوك ، وانما كانت تحملق فى الفضاء أمامها ، وقد ارتدت نفس الفستان الابيض ، والقبعة الكبيرة ذات الازهار . ولاحظ ماكفيل أنها شاحبة الوجه مصفرة البشرة تحت المساحيق التى دهنت بها وجهها ، وأن جفنيها مثقلان ، ونظراتها شاردة زائغة .. وقال لها : ـ (: آسف جدا ، أن أسمع أنك على غير ما يرام .

ـ أوه .. فى الواقع لست مريضة أبدا .. وقد زعمت ذلك لأنى أريد أن أراك على أن أبحر على الباخرة الذاهبة الى سان فرانسيسكو .

ورفعت اليه ناظريها ، فرأى فيهما ذعرا مفاجئا ، وقد اخذت تقبض كفيها وتبسطهما فى حركات تشنجية ظاهرة .. وكان مستر هورن واقفا يصغى بالباب .

ـ وقال ماكفيل : هذا ما فهمته .

وندت عن صدرها شهقة مزحومة خافتة وهى تقول : (اعتقد انه ليس مما يلائمنى كثيرا أن أذهب الى سان فرانسيسكو الآن .. ولقد ذهبت لمقابلة الحاكم بعد ظهر الأمس ولكنى لم اوفق فى الدخول عليه .. قابلت السكرتير ، الذى أخبرنى ان على أن أبحر على هذه الباخرة ، وذلك كل ما هنالك .. تشبثت بضرورة مقابلة الحاكم ، ولذلك ظللت أنتظر خروجه من داره فى الصباح ... وعندما خرج تحدثت اليه .. وبدا أنه لا يريد أن يكلمنى ولكنى لم أبتعد عن طريقه .. وأخيرا قال:انه لا يمانع فى بقائى الى أن تجيء السفينة الذاهبة الى سيدنى اذا كان مستر دفيدسن المبجل يستطيع ان يحتمل ذلك .

وسكتت بينما ظلت نظراتها معلقة على الدكتور ماكفيل فى قلق وفروغ صبر .. فقال :

ـ لست أدرى ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك .

ـ حسنا .. فانى أظن انك قد لا تجد ضيرا فى ان ترجوه فى ذلك ، وأقسم بالله ـ اذا سمح لى بمجرد البقاء ـ ألا يصدر منى شيء هنا ابدا .. بل انى لأعد بألا اخرج من البيت إذا كان ذلك يتفق مع رغبته ، والمدة كلها ليست أكثر من أسبوعين .

وقال الدكتور ماكفيل : ـ (سأرجوه) .

فعقب مستر هورن : لن يوافق أبدا .. سيصر على أن تغادرى يوم الثلاثاء . وعليك أن تدبري شؤونك على هذا الأساس .

وقالت مس تومسن توجه حديثها الى الدكتور ماكفيل : ـ قل له أنى أستطيع أن أجد عملا فى سيدنى .. أقصد عملا شريفا .. وما أظننى أطلب الكثير .

وقال الدكتور ماكفيل : (سافعل ما أستطيع) .

ـ ثم عد واخبرنى أرجوك .. فلن يهدأ لى بال الليلة حتى أعرف مصيرا من اثنين : البقاء .. او الرحيل .

ولم تكن المهمة التى اضطلع بها الدكتور ماكفيل من المهام التى يسر للقيام بها .. وربما كان محكوما بطبعه حين سلك الى تحقيق هذه المهمة سبيلا غير مباشر . فقد أخبر زوجته بما قالته مس تومسن ، وطلب منها ان تتحدث فى ذلك الى مسز دافيدسن . وقد بدا له ان موقف رجل التبشير من الفتاة فيه الكثير من التعسف والجور ، اذ لم يكن هناك ضير ما فى السماح لها بالبقاء أسبوعينِ آخرين فى (باجو باجو) .. ولكن رجل التبشير لم يكن مستعدا لتحمل النتائج التى تترتب على الاستجابة لوساطة الدكتور . ولهذا فقد أسرع اليه وهو يقول :

ـ مسز دافيدسن تقول ان مس تومسن قد فاتحتك فى موضوعها .

وأحس ماكفيل ـ وقد تورط الآن فى المشكلة ـ بالاستياء الذى يملأ صدر الرجل الخجول بطبعه ، وشعر ان زمام اعصابه يكاد يفلت منه ، واحمر وجهه وهو يقول : ـ « لست أرى اى فرق فى أن تذهب الى سيدنى بدلا من أن تذهب الى سان فرانسيسكو . ومادامت قد وعدت ان تسلك سلوكا مرضيا طيلة اقامتها هنا ، فإنى أظن ان من القسوة أن .....

ولكن رجل التبشير صعقه بنظرة جامدة من عينيه ثم قال : ـ « لكن ... لماذا ؟؟ اما تريد هي السفر الى سان فرانسيسكو ؟؟

ـ لم أسألها ... ثم أن الأخلق بالمرء أن ينصرف الى شؤونه بدلا من التدخل في شؤون الغير ..

وكان واضحا أن جواب الدكتور لم تكن فيه الكفاية من اللباقة وحسن المأخذ فقال رجل التبشير : ـ « لقد أصدر الحاكم أمره بان تغادر على أول سفينة تبحر من الجزيرة ، وهو بذلك انما يؤدي واجبه . ولا أريد أن أتدخل ... ان وجودها هنا خطر .

ـ أحسبك بالغ العسف والقسوة .

وتطلعت كل من السيدتين الى الدكتور في شيء من التوجس والحذر .. ولكنهما سرعان ما اطمأنتا ، حين رأيا رجل التبشير يبتسم في لطف وهو يقول : ـ « يؤسفني أشد الأسف ، أن يكون هذا ظنك بي يا دكتور ... ولكن صدقني ان قلبي يتمزق اسفا واسى لهذه المرأة التعسة ... ثم اني لا أفعل شيئا سوى إني أحاول أن أؤدي واجبي .

ولم يحر الدكتور ماكفيل جوابا ، وارسل نظرة ساهمة عبر النافذة ، وكان قد توقف هطول الأمطار ، وتلامحت بين قرى الوطنيين البعيدة ، اكواخ قرية بين الأشجار عبر الخليج ... وبعد صمت قليل ، قال : ـ « أظن اني سانتهز فرصة انقطاع المطر لأخرج . »

وقال دافيدسن بابتسامة كئيبة : ـ « أرجو ألا تحقد على اذ لم أساير رغبتك ، واني لأحترمك كثيرا ، ويؤسفني ان تسيء الظن بي ..

وأجابه الدكتور ماكفيل : ـ « لاشك عندي ان لديك من حسن ظنك بنفسك ما يكفي لأن تحتمل حقدي ، أو ، سوء ظني ، بثبات ورباطة جأش .

وقهقه دافيدسن وهو يقول : ـ « لك على ذلك »

وعندما عاد ماكفيل الى نفسه ، استرجع ما كان قد فقد من سيطرته على أعصابه ، وأحس بخشونة مسلكه ، دون مبرر معقول ، فنهض ، وغادر الغرفة الى الطابق السفلي ، حيث وجد مس تومسن تنتظره على باب غرفتها الموارب ، فما كادت تراه حتى هتفت : ـ « حسنا ... هل كلمته ؟؟؟؟ »

ـ أجل .. ويؤسفنى انه لن يفعل شيئا من اجلك ..

وندت عن صدرها شهقة . واذ رفع بصره اليها بنظرة خاطفة رأى وجهها قد ابيض وشحب فزعا . فسرت فى جسمه هزة من رعب ، وأومضت فى ذهنه فجأة فكرة فوجد نفسه يقول : ـ « ولكن لا تيأسى ... وانى لأرى فى الطريقة التى يعاملونك بها عارا فاضحا وسأذهب لمقابلة الحاكم بنفسى .

ـ الآن ؟؟؟

وهز رأسه بايماءة ايجاب ، فابرقت اساريرها اغتباطا وقالت : ـ « انها لمكرمة حقا . وأنى لواثقة انه سيسمح لى بالبقاء اذا كلمته أنت ... سوف لن تقع منى أية بادرة طيلة اقامتى هنا .

وأدرك الدكتور ماكفيل فى النهاية الباعث الذى جعله يقرر ان يلجأ الى الحاكم ... فإنه لم يكن ليعبأ فى الواقع بالمس تومسن فى قليل او كثير ، لولا ان رجل التبشير كان قد اثاره وفزع طائره وهو ممن لا يعوقهم عائق عما يريدون ، اذا ما استفزوا واثيروا . وقد وجد الحاكم فى المنزل . وكان رجلا ضخما ، وجيه الطلعة والسمت من رجال البحر ، بشاربين مقطوطين وخطهما الشيب . وقد ارتدى حلة نظيفة بيضاء ، وقال الدكتور :
ـ لقد جئت اقابلك بشأن امرأة ، تسكن فى نفس السكن الذى نأوى اليه . اسمها مس تومسن .

ـ أحسبنى قد سمعت عنها ما فيه الكفاية يا دكتور ، وقد أصدرت اليها أمرا بأن تغادر الجزيرة يوم الثلاثاء القادم ... وذلك هو كل ما أستطيع أن أفعله .
ـ لقد جئت أسألك ، ما اذا كنت تستطيع أن تسمح لها بالبقاء هنا الى أن تعود الباخرة من سان فرانسيسكو ، ليتاح لها أن تذهب الى سيدنى ... وانى لأضمن أن تسلك سلوكا مرضيا فى هذه الفترة .

ـ وظل الحاكم يبتسم لحظات ، ولكن عينيه أخذتا تضيقان وتبرقان بما توثب فى ذهنه من الصرامة والجد ثم قال :
ـ كم يسرنى أن اجيبك الى طلبك ... ولكنى قد أصدرت أمرى ولا سبيل الى الرجوع عنه .

واخذ الدكتور يشرح الحالة كما يشعر بها ، ويدعم أقواله بكل ما يسعه من منطق وبرهان. ولكن الابتسامة التى كانت ساطعة على وجه الحاكم اخذت تتوارى الآن ، وبدا أنه يصيغى الى اقوال ماكفيل فى برم وضيق مع نظرة قلقة لا تستقر .. وأحس ماكفيل أن كل ما يقوله يذهب هباء ، وأخيرا قال الحاكم : ـ « يؤسفنى أن أتسبب فى إقلاق أى سيدة ، ولكن عليها أن تغادر يوم الثلاثاء ... وهذا يا دكتور كل ما عندى فى الموضوع .

ـ ولكن ما الفرق بين أن تسافر الى سان فرانسيسكو ، أو الى سيدنى ؟؟؟

ـ عفوا يا دكتور ، ولكنى لا أشعر أن على أن أعلل تصرفاتى الرسمية لأحد سوى السلطات المختصة .

وتفرس الدكتور ماكفيل فى وجه الحاكم لحظات ، وتذكر ما كان أشار اليه دافيدسن عن لجوئه الى التهديد ، واستطاع ان يقرأ فى نظرات الرجل الحيرة البالغة فقال فى حدة :

ـ لعمرى ، أن دافيدسن هذا لإنسان متطفل لعين .

ـ ان اردت الحق ـ والكلام بيننا ـ فانى لا استطيع ان اقول انى كونت فكرة محببة عن مستر دافيدسن هذا ... ولكنى لا اجد بدا من الاعتراف بأنه لم يتجاوز حقوقه فيما يمكن ان ينتهى اليه الأمر من الخطر الذى ينتج عن وجود امرأة باخلاق مس تومسن فى مكان كهذا ، يعسكر فيه عدد من المجندين بين السكان الأصليين .

واضطر ماكفيل أن ينهض ، حين رأى الحاكم يقف فجأة وهو يقول :

آن لى ان استأذنك يا دكتور ، فان لدى موعدا ... أرجو أن تقدم تحياتى الى مسز ماكفيل .

وغادر ماكفيل غرفة الحاكم ، مخذولا مطأطىء الرأس ... واذ كان يعلم أن مس تومسن لابد أن تكون متربصة فى انتظاره ، وثقل عليه أن يخبرها بنفسه انه قد فشل فيما انتدب نفسه له ، فقد دخل البيت من الباب الخلفى وتسلل صاعدا الى الطابق العلوى متوجسا حذرا ، كأنما كان لديه ما ينبغى ان يستر ويوارى .

وعندما حان موعد العشاء ، كان الدكتور ماكفيل صامتا شارد الذهن لا يريم ، بينما كان رجل التبشير بادى البشر والمرح ، نشطا يكاد يتوفز ، حتى لقد رأى فى نفس

الدكتور ماكفيل ان نظراته كانت تستقر عليه احيانا فى تبسط وانشراح الفائز المنتصر ، بل لقد أبرق فى ذهنه فجأة ان دافيدسن قد علم بزيارته للحاكم وبالنتيجة الفاشلة أيضا . ولم يستطع أن يدرك كيف أتيح له أن يعلم ، ولكن لم يبق لديه شك فى أن هناك شيئا بالغ الخطورة ، يكمن فى قوة ذلك الرجل .

واذ فرغوا من تناول العشاء ، رأى مستر هورن على الشرفة ، فتظاهر بأنه يريد أن يحدثه عن شيء ثم خرج اليه ... وسرعان ما قال هورن هامسا : « انها تريد ان تعلم ما اذا كنت قد قابلت الحاكم » .

ـ أجل قابلته ، ولكنه لن يفعل شيئا من أجلها ... وانى لآسف جدا ... ولا أستطيع أن أفعل بعد هذا اى شيء ....

ـ لقد كنت على يقين من أنه لن يفعل شيئا .... إنهم لايجرؤون أن يقفوا فى وجوه المبشرين ..

وهنا رأيا دافيدسن يخرج اليهما وهو يقول : « عن ماذا يا ترى تتحدثان؟؟؟

واستدرك هورن الموقف فقال بذلاقة وحضور ذهن : « لقد كنت اقول للدكتور أنه لا أمل فى ابحاركم الى (ة آبيا) قبل أسبوع آخر على الأقل ..

وتركهما رجل التبشير ... وكان من عادته أن يكرس ساعة من وقته بعد كل وجبة يتناولها للراحة والاسترخاء ... فعاد الرجلان الى غرفة الاستقبال ، وما كادا ، حتى سمعت طرقة متخاذلة مترددة على الباب ، خفت لها مسز دافيدسن بصوتها جاف النبرات قائلة :

ـ ادخـــــل .

واذ لم ينفتح الباب نهضت وفتحته فاذا الواقفة على عتبته مس تومسن .. ولكن التغير الذى طرأ على مظهرها كان بالغ الغرابة والعجب ... لم تكن ابدا هى تلك المرأة السليطة التى سخرت بهم فى الطريق ... كانت امرأة محطمة مروعة زائغة النظرات .. وكان شعرها الذى كان لا يرى الا مصففا فى دقة واحكام ، قد بدا الآن مشعثا متهدلا على العنق وكانت تنتعل (شبشبا) مما يستعمل فى غرفة النوم ، وترتدى جونيلا وبلوزة حائلتى اللون بل وقذرتين ... وقفت على عتبة الباب والدموع تتبادر على وجهها ، دون أن تجرؤ على الدخول .

وقالت مسز دافيدسن فى حدة وضيق : ـ « ماذا تريدين ؟؟؟

وأجابت مس تومسن فى صوت مرتعش منكسر : ـ « هل أستطيع أن اتحدث الى مستر دافيدسن ؟؟

وسرعان ما نهض رجل التبشير واتجه اليها وهو يقول فى نبرة عطوفة متوددة : ـ « ادخلى هنا يا مس تومسن ... ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك ؟؟

ـ إنى آسفة على ما قلته وما بدر منى ذلك اليوم .. أحسبنى كنت مهتاجة الطبع قليلا .

وانى لأعتذر وأستميحك العفو ..

ـ ليس الأمر على شيء من الأهمية اطلاقا . أحسب أن فى سعة صدرى ما يكفى لاحتمال بضع كلمات قاسية .

وخطت نحوه بحركة بالغة التذلل والانكسار وهى تقول : ـ « لقد أنزلت بى ضربة قاسية جدا ... وانى لأتوسل اليك أن تقول : انك لا تريد أن تضطرنى للذهاب الى سان فرانسيسكو .

ولكن سرعان ما تلاشى قناعه الهادئ العطوف ، واستحال صوته الناعم المتودد الى لهجة خشنة جافية وهو يقول : ـ « ولماذا تكرهين العودة الى هناك ؟؟

وتداعت الفتاة راكعة على ركبتيها أمامه وقالت : ـ « أهلى وقومى يعيشون هناك . ولا أريد أن يرونى على هذه الحال ... وانى لعلى استعداد أن أذهب الى أى جهة تأمرنى بالذهاب اليها » ...

فاذا به يعود فيقول بلهجة أشد صرامة واحتداما : ـ « لماذا لا تريدين الذهاب الى سان فرانسيسكو ؟؟؟

ـ لقد أخبرتك بالسبب .

ومال رجل التبشير الى الأمام ، وهو يحدق فيها ، وبدا كأن عينيه الكبيرتين المتوهجتين تحاولان أن تخترقا روحها ... ثم ـ بغتة ـ ارسل شهقة من يقع على سرضنين ، وهو يقول : « اصلاحية النساء » ..

فاذا بالمس تومسن تصرخ وترتمى على قدميه تمرغ وجهها عليهما ، وتتشبث بساقيه كلما حاول الابتعاد عنها وقالت : ـ « لا تبعث بى الى هناك ... واقسم لك بالله العظيم أنى ساكون امرأة شريفة ... سوف لن أعود الى ما أنا فيه الآن ... » ثم انفجرت تشهق وتبكى فى نشيج متقطع ، والدموع تكنس ما على وجهها من مساحيق والوان ... فانحنى عليها ورفع وجهها بين يديه وحملها على أن تنظر اليه وهو يقول : « الاصلاحية ... اليس كذلك ؟ »

وتنهدت الفتاة وهى تشهق قائلة : ـ « لقد هربت قبل ان يتمكنوا من القاء القبض على ، واذا استطاعوا ان يلقوا القبض على الآن فان على أن أقضى فيها ثلاث سنوات ... »

وأرخى عن وجهها قبضة كفيه فجأة ، فتداعت وهوت الى الارض باكية فى مرارة ويأس .

ووقف الدكتور ماكفيل وهو يقول :

هذا يغير الموقف كله يا مستر دافيدسن ... انك لا تستطيع أن تبعث بها الى هناك .... قد علمت بهذا الآن ... اتح لها فرصة اخرى ... وهى كما ترى تريد ان تفتح صفحة جديدة ، غير التى كانت لها من قبل ...

ـ سأتيح لها أفضل فرصة ممكنة ... بل افضل فرصة تتاح لها فى حياتها كلها فإذا كانت ستتوب ، فإن عليها أن تصمد وأن تتحمل صابرة راضية ما قدر عليها من عقاب وعذاب ..

ولم تحسن فهم كلماته ، فتطلعت اليه ، وفى عينيها بريق امل وقالت : « هل تتركنى وشأنى ؟؟ » .

ـ كلا ... ستبحرين الى سان فرانسيسكو يوم الثلاثاء .

فارسلت الفتاة انة صارخة ملؤها الرعب ، ثم استرسلت فى بكاء ونشيج خافت مبحوح بلغ من تكسره واختلاط مخارجه، ان يشك سامعه فى انه صوت انسان .... وأخذت تضرب الأرض برأسها فى هياج وعنف اضطر معهما الدكتور ماكفيل أن يهرع اليها ويرفعها عن الأرض وهو يقول بصوت مواس مشغوف : ـ « لا ... لا ... لا يجمل بك ان تفعلى بنفسك كل هذا . الأولى ان تذهبى الى غرفتك ، وان تستلقى فى فراشك ،

وسآتيك بشيء » ثم أنهضها على قدميها ، وشرع يجرها تارة ، ويحملها تارة ، حتى نزل بها السلالم الخشبية الضيقة الى غرفتها ، وهو مهتاج يكاد يتفجر حنقا على مسز دافيدسن ، وعلى زوجته اللتين لم تحاولا ان تبذلا اى مجهود لمساعدته ، وهو يتدحرج بالفتاة على السلالم ... وكان هورن واقفا عند بسطة السلم فاستطاع بمساعدته ان يضعها على فراشها ، وهى ماتزال تئن وتبكى وتختلج فاقدة الحس تقريبا ... وأعطاها حقنة مهدئة للأعصاب ثم غادر الغرفة ثائر الوجدان يكاد لا يتماسك ، او يرى الطريق ..

وعندما دخل غرفة الاستقبال حيث كانوا يجلسون ، كان يتهالك على نفسه اعياء ونصبا وانفعالا ، وهو يقول : ـ « لقد استطعت أن أجعلها تستلقى على فراشها » ..

وكانت المرأتان ، ودافيدسن ، فى نفس الوضع الذى تركهم عليه .. يبدو انهم لم يستطيعوا أن يتحركوا ، او أن ينبسوا بحرف منذ ذهب ... وانقضت لحظات صمت قبل أن يقول دافيدسن فى صوت غريب ؛ كأنه ينبعث من أعماق بعيدة : ـ « لقد كنت انتظرك يا دكتور ... أريد منكم جميعا أن تصلوا معى من أجل روح (اختنا) الخاطئة » .. ثم تناول الانجيل من الرف الى جانبه ، وجلس الى المنضدة التى تناولوا عليها عشاءهم ، ولم تكن قد رفعت عنها بقايا المائدة بعد ، فدفع آنية من الأوانى بعيدا عنه قليلا ... وشرع يقرأ لهم فى صوت قوى رنان عميق الفصل الذى يروى لقاء المسيح بالمرأة المتهمة بالزنا .

وما كاد يفرغ حتى قال : ـ « والآن ... اركعوا معى ، ونصلى معا من أجل روح أختنا العزيزة سادى تومسن » ..

ثم ... انطلق يصلى صلاة طويلة عميقة بصوت يفيض حنانا وعذوبة ، فدعا فيها الله ان يرحم المرأة الخاطئة .... وركعت معه كل من مسز ماكفيل ومسز دافيدسن بعينين مغمضتين خاشعتين ... واما الدكتور ماكفيل فقد اذهلته كهنوتية الموقف ، ولكنه ركع هو الآخر ، مرتبكا متعثرا فى ارتباك ودهشة بينا ظلت صلاة رجل التبشير تملأ المكان بصوته وفصاحة ادائها المحتدم ، وقد استغرقه الحماس والتهيج فاخذت دموعه تجرى على وجهه ، وهو يرتل ادعياته وصلواته ..

وكان المطر العنيف ـ خارج البيت ـ قد عاد يهطل فى ذلك الاصرار والعناد وفى ما يشبه حقدا ثائرا ينطلق هدارا من صدر جبار رهيب ..

وأخيرا فرغ رجل التبشير من صلاته والتزم الصمت لحظات ثم عاد يقول « والآن فلنكرر معا صلاة الرب . ثم أخذ يقرأ مقاطع من الانجيل ، وهم يرددون بعده ما يقرأ ولما نهضوا من ركوعهم كان وجه مسز دافيدسن شاحبا ساهم الاسارير ، بحيث بدا انها قد أسيت واستراحت ، وشاع فى نفسها الهدوء والسلام ، ولكن ماكفيل وزوجته احسا فجأة بخجل وارتباك ، وبديا حائرين فى ماذا ينبغى عليهما ان يفعلاه بعد ..؟

ـ وقال الدكتور ماكفيل : ـ سأذهب لأرى كيف حالها الآن ..؟

* * *

وعندما طرق باب غرفتها ، فتحه له مستر هورن ، فوجد الفتاة جالسة على كرسى هزاز ومازالت مستسلمة للبكاء والنشيج فى صمت وهدوء فقال منفعلا : ـ « ماذا تفعلين هناك ؟؟؟ لقد قلت لك انه ينبغى ان تستلقى على فراشك ..

ـ لا أستطيع أن أستلقى ... أريد أن أرى مستر دافيدسن .

ـ يا طفلتى العزيزة ، ما الجدوى ؟ .. انك لن تستطيعى ان تزحزحيه عن موقفه قيد شعره ..

ـ لقد قال انه يجىء اذا بعثت فى طلبه .

فلم يسع الدكتور ماكفيل إلا أن يلتفت الى مستر هورن وهو يقول : ـ « اذهب واحضره .. » وظل ماكفيل ينتظره معها فى صمت ... وحين دخل دافيدسن تطلعت اليه وقالت : ـ « ارجو ألا تؤاخذنى على طلبى حضورك الى هنا » .

ـ لقد كنت أتوقع أن تبعثى فى طلبى ... فإنى أعلم أن الرب سيستجيب لدعائى .

وحملق كل منهما فى الاخر لحظات ، ثم حولت عنه نظرتها ، وارسلتها بعيدا وهى تتحدث اليه قائلة : « لقد كنت حتى اليوم امرأة ساقطة ، وانى لأريد أن أتوب .

ـ شكرا لله ... شكرا لله ، فقد استجاب لدعائى وصلاتى ..

ـ ثم التفت الى الرجلين وهو يقول : ـ « اتركانى وحدى معها ... وأخبرا مسز دافيدسن ان الله قد أجاب سؤالنا ، والحمد لله ..

وخرج الدكتور ماكفيل ومستر هورن ، واغلقا خلفهما الباب . بينما قال مستر هورن : ـ « يا الهى »

ولم يستطع الدكتور ماكفيل أن ينام فى تلك الليلة ... وعندما سمع وقع أقدام مستر دافيدسن وهو يصعد الى غرفته ، نظر فى ساعته ليرى انها الثانية بعد منتصف الليل ... وأدهشه أن الرجل رغم ذلك ـ لم يأو الى فراشه ؛ اذ سمعه ـ عبر الحاجز الخشبى الذى يفصل بين الغرفتين ـ يدعو الله بصوت مرتفع ، الى أن أحس الدكتور بالإعياء ، فاستسلم للنوم وصوت دافيدسن مازال يدوى بدعائه وصلواته .

وفى صبيحة اليوم التالى ، عندما رآه ، دهش لما بدا عليه ... كان اكثر شحوبا من أى وقت مضى ... بادى الرهق والاعياء ، ولكن عينيه كانتا تومضان ببريق وحشى ،،، وبدا كأن نفسه قد اترعت بنشوة غامرة وقال : ـ « أريدك ان تذهب وترى سادى الآن ... لا استطيع ان اقول أن جسمها احسن حالا .... ولكن ... ولكن روحها قد تغيرت تماما ..

وكان الدكتور شاحبا ثائر الأعصاب فقال : ـ « لقد ظللت معها الى وقت متأخر فى الليلة البارحة .

ـ بلى .. فانها لم تستطع أن تحتمل أن أتركها وانصرف عنها .

وعلق الدكتور ماكفيل فى نبرة لاتخلو من انفعال : « وانك لتبدو ظافراً مرحا كالنشوان .

وأبرقت عينا دافيدسن ببهجة دافقة وقال : « لقد أدركتنى رحمة الله الكبرى ، إذ منحنى البارحة شرف هداية روح ضالة الى أحضان المسيح الحبيب .

وعندما دخل دكتور ماكفيل غرفة مس تومسن وجدها على الكرسى الهزاز مرة أخرى ، ولم يكن فراشها قد نسّق بعد .. والغرفة كلها مضطربة تتبعثر فيها الفوضى . ولم تكن هى قد ارتدت ماتقابل به الغير من الملابس .. كل ماكان على جسمها هو (روب) بال قذر ، بينما كان شعرها محوّى فى عقدة مشعّثة متنافرة ، وقد لفت وجهها بقطعة قماش مبللة ، ولكّنه كان متورما فى بعض قسماته ، وقد غضنّها البكاء .. كانت تبدو امرأة قذرة ملوثة فعلا .

ورفعت عينيها الى الدكتور ماكفيل فى كسل واسترخاء .. كانت محطّمة مروعة وقالت :

ـ « أين المستر دافيدسن ؟؟

ـ يأتى حالا اذا كنت تريدين .. ولقد جئت لأرى كيف حالك اليوم .

ـ احسبنى على خير حال .. ولاتحتاج الى أن تشغل نفسك بأمرى .

ـ ولكن .. هل أكلت شيئا ؟؟

ـ جاءنى هورن بقليل من القهوة .

وكانت تتطلع الى الباب فى ترقّب وقلق وقالت :

ـ هل تظنه سيأتى ؟؟ لقد كنت احس كما لو لم يكن الأمر بالغ الرهبة ، عندما يكون معى .

ـ وهل مازال عليك أن تسافرى يوم الثلاثاء ؟؟

ـ بلى .. انه يقول أن على أن أسافر فى هذا اليوم .. أرجو أن تخبره بالمجىء الىّ حالا .. وأنت لاتستطيع أن تساعدنى بأية حال .. هو .. هو الشخص الوحيد الذى يستطيع مساعدتى الآن .

ـ حسنا .....

* * *

وظل رجل التبشير يقضى معظم أوقاته مع مس تومسن خلال الأيام الثلاثة التالية بل لم يعد يجلس مع الآخرين من رفقته الا عند تناول وجبات الطعام . ولاحظ الدكتور ماكفيل أنه يكاد لايأكل .

وقالت مسز دافيدسن فى بعض ماتتحدث به عنه ، فى اشفاق ورثاء ـ « انه يكلف نفسه فوق ماينبغى له .. وأخشى أن يصاب بانهيار اذا لم يكف .. ولكنه لايرحم نفسه » .

وكانت هى نفسها ممتقعة شاحبة وقد اخبرت مسز ماكفيل انها لم تعد تنام ، وأن زوجها حين يصعد اليها بعد أن يفرغ من مس تومسن فى وقت متأخر من الليل ، يأخذ فى الصلاة الى أن يبلغ به الاعياء والجهد .. وحتى فى هذه الحالة لاينام طويلا بل يستيقظ بعد ساعة أو ساعتين ، ويرتدى ملابسه ، ثم يخرج ليتجول على امتداد

الخليج .. ثم .. ثم إنه قد أخذ فى هذه الأيام يرى أحلاما غريبة .. لقد قال لى اليوم؛إنه رأى فيما يرى النائم جبال (نبراسكا) ..

ولم يطل التفكير بالدكتور ماكفيل ليعلق بهدوء قائلا : (غريب ..)

وتذكر أنه سبق له أن رأى جبال (نبراسكا) هذه من نافذة القطار ، فى بعض رحلاته فى أمريكا .. كانت تشبه تلالا صغيرة مستديرة ناعمة ، تنهد مشرئبة من السهل فى توفز ولم ينس ، وهو يذكر هذه الجبال الآن كيف خطر له وهو يراها انها تشبه نهدى امرأة الى حد غريب .

وكان قلق دافيدسن ظاهرا لايكاد يفوته هو نفسه ، ولكنه كان فى نفس الوقت ، يكاد يطير بما تفيض به نفسه من فرحة غامرة ، اذ كان ـ كما يقول ـ يقتلع آخر جذور الخطيئة والاثم ، التى كانت موغلة فى الحنايا الخفية من قلب تلك المرأة الخاطئة .. ولذلك فقد كان يقرأ ويدعو الله معها باستمرار ..

وفى احدى جلساتهم لتناول العشاء فى المساء قال : « ما أروع ما أجد .. ! » إنه ميلاد جديد تماما .. فإن روحها التى كانت سوداء مظلمة كالليل البهيم قد أصبحت الآن نقية كالفجر ، طاهرة كالثلوج فى بدء سقوطها على الأرض .. وانى لحقير جبان ، اذ ان تكفيرها عن خطاياها جميل .. جميل حتى ليخيل الى انى ـ أنا نفسى ـ لست أهلا لأن المس ذيل ردائها .

ولم يجد الدكتور ماكفيل ـ وهو يسمع كل هذا الذى يفضى به رجل التبشير ـ بدا من أن يعلق متسائلا : « أما يزال لك قلب يبعث بها الى سان فرانسيسكو .. ثلاث سنوات فى سجن أمريكى ؟؟ اظن انك تستطيع الآن ان تجنبها مثل هذا المصير الرهيب . »

ـ ولكن أما ترى ؟ ذلك أمر لابد منه قطعا .. هل تظن أن قلبى لايتمزق حزنا عليها . إنى لأحبها كما أحب زوجى واختى .. ولسوف أشاركها جميع الآلام التى سوف تعانيها طيلة تلك المدة التى سوف تقضيها فى السجن . »

ولم يملك الدكتور ماكفيل الا أن يصرخ غاضبا ـ « ياللكذب .. ياللخداع والتضليل . »

ـ ولكنك لاتفهم يادكتور .. وأنت لاتفهم لأنك أعمى .. انها امـرأة خاطئـة ، والخاطئة مثلها يجب أن تتعذب .. أعلم ماسوف تعانيه .. سوف تجوع .. بل وسوف تجلد وتضطهد وتتعرض لأقسى أنواع الإهانة والاحتقار .. ولكنى أريد لها أن تتقبل وتحتمل العذاب فى هذه الدنيا تضحية منها فى سبيل الله .. بل أريد لها أن تتقبل كل ذلك فى سرور ورضى .. وتالله .. لديها الفرصة التى لاتتاح الا للقليلين على هذه الأرض .. وأن الله لغفور رحيم .

وكان صوته يرتعش تهيجا وانفعالا ، حتى لقد يتعذر عليه أن يلفـظ الـكلمات بوضوح فهى تتعثر وتتكسر بين شفتيه وهو يقول : ـ « انى لأدعو الله معها طيلـة النهار ، واعود الى الدعاء عندما اتركها بكل مايسعنى من طاقة وجهد ليمنحها المسيح تلك الرحمة الكبرى .. وانى لأريد أن أغرس فى قلبها الرغبة الملحة الصادقة فى أن تعاقب وتعذب بحيث يبلغ بها الأمر ان ترفض الإفلات من العقاب حتى ولو عرض عليها ان تفلت او تعفى منه .. أريدها أن تشعر بأن عقاب السجن المرير ، هو الشكران العميق الذى تتقدم به الى قدمى الرب المبارك الذى تهب حياتها له .

* * *

ومرت الأيام فى تراخ وبطء . والبيت كله يعيش فى حال من القلق والتوتر ، نتيجة لما يعانيه كل فرد فيه من اهتمام بمصير المرأة البائسة المعذبة فى الطابق السفلى ، وقد أمست كالضحية التى تهيأ لمصيرها المحتوم اداء لشعيرة من الشعائر الدموية فى معبد وثنى . وكان الفزع الذى سيطر عليها قد افقدها الكثـير من إرادتهـا وحريتهـا ، فأصبحت لاتطيق أن يغيب دافيدسن عن نظرها ولاتحس الشجاعة والطمأنينة الا حين تكون معه وقد تعلقت به فى ذل عبودى .. كانت تبكى كثيرا وباستمرار ثم تقرأ الإنجيل وتصلى دون انقطاع فاذا بلغ منها الجهد تسقط اعياء غائبة عن الصواب . وعندئذ كانت تستغرق فى تأمل محنتها ، كأنها كانت تجد فى هذا كله مهربا مباشرا ومضمونا من قسوة الألم الذى تعانيه ولم تعد تحتمل ـ أكثر مما احتملت حتى الآن ـ المخـاوف الغامضة التى ظلت تنهش أعصابها .. وقد نحـت جانبـا عنهـا اثامهـا وغرورهـا الشخصى ، وانطوت على نفسها فى غرفتها بما عربد فيها من اضطراب وفوضى ، وهى مشعثة الشعر ، مشوشة الهندام فى قميص النوم ، ذلك الذى ظلت ترتديه دون أن ترتفق جواربها منذ أربعة أيام .

وطيلة هذه الأيام الأربعة كان المطر مايزال ينهمر فى عناد جبار ، بحيث يخيل للمرء ان معين السماوات من الماء ينبغى أن يكون قد نضب فى النهاية ولكنها مع ذلك تظل تمطر فى تدفق متلاحق لاهث ، وصخاب على هذا السطح من الحديد المضلع بحيث تكاد تعصف بكل طاقة المرء من التعقل والصبر .. وكان كل شىء رطبا لزجا ، وقد عشّشت على الجدران ، بل وحتى على الأحذية الملقاة على الأرض ، طفيليات العفن والطحالب .

أما فى الليل ، ومع هذا الصخب الذى لاينقطع والرطوبة اللزجة التى تتسكع وتدور حول كل مايحيط بالمرء من هواء ثقيل مشحون بالضيق والتقزز ، فلم يكن يغمض لهم جفن ، وعلى الأخص مع البعوض الدائب على طنينه المتواصل ، الذى يملأ الجو بغنائه الخانق المغيظ .

وقال الدكتور ماكفيل ، وقد أشفى على النهاية من الضيق والسخط ـ « لو أن هذه الأمطار تكف يوما .. يوما واحدا فقط .. » .

وجميعهم كانوا ينتظرون يوم الثلاثاء الذى تصل فيه الباخرة من سيدنى فى طريقها الى سان فرانسيسكو ، وقد ارهقهم الى حد التمزق الوحشى ماتعانيه أعصابهم من ضغط وتوتر . وبالنسبة للدكتور ماكفيل ، فان استياءه واشفاقه قد خمدا معا فى حمى رغبته الملحة فى الخلاص من مشكلة المرأة التعسة كلها ، إذ لامناص من مواجهة الواقع على كل حال . وكان يحس أنه سيتنفس الصعداء ساعة تبحر الباخرة بها . واذا كان لابد للمس تومسون ان تصعد الى الباخرة فى حراسة موظف من قبل الحاكم ، فإن هذا الموظف قد زارها فى مساء الاثنين واخبرها أن تتهيأ فى الساعة الحادية عشرة من صباح الغد . وكان دافيدسن موجودا حين زارها هذا الموظف فقال : ـ « سأشرف بنفسى على إعداد كل مايلزم للرحيل ، بل انوى ايضا ان اصعد معها الى الباخرة » ولم تقل مس تومسون شيئا .

* * *

وحين أطفأ الدكتور ماكفيل مصباحه وتسلل بحذر الى فراشه تحت الناموسية تنهد وتأوه آهة من يزاح عن صدره عبء ثقيل وقال : ـ « نشكر الله على ان المسألة قد

انتهت فانها فى مثل هذا الوقت من الليلة المقبلة تكون هذه المرأة قد ذهبت .

وقالت مسز ماكفيل : « وستسر لذلك مسز دافيدسن . فانها تقول أن زوجها قد أضناه الجهد ، ولقد تغيرت المرأة فعلا .

ـ من ؟ اية امرأة ؟؟

ـ سادى تومسن .. والحق انى لم أكن لأصدق أن هذا يمكن أن يقع .. انها مخلوق آخر تماما .. تالله أن ذلك ليشعر المرء بثراء الجهد الروحى وعطائه الكريم .

ولم يجب الدكتور ماكفيل بشيء واذ كان قد بلغ من الرهق اقصى حد فسرعان ما استسلم للنوم العميق .

* * *

وفى الصباح الباكر استيقظ ماكفيل على يد تربت على ذراعه .. وحين انتبه وحملق مستطلعا رأى مستر هورن واقفا الى جانب سريره ، وما كاد يواجه نظرات ماكفيل الزائغة حتى وضع سبابته على فمه يحذره من أن يرفع صوته بأية نأمة . ثم اشار اليه أن يتبعه .. وكان يرتدى تلك البدلة التى ظل يرتديها منذ أول لقاء ، ولكنه كان الآن حافى القدمين ، وقد ارتفق مايسمى (اللافا لافا) وهو نعال وطنى مما اكسب مظهره تناقضا مضحكا .. وحين خرج ماكفيل من فراشه اشار اليه هورن أن يتبعه الى الشرفة فى صمت .. وما كادا يقفان فى الشرفة حتى قال هامسا : ـ « احذر أن تحدث اية ضجة .. إنك مطلوب فارتد أى معطف وحذاء وأسرع » .

وكان أول ماتبادر الى ذهن ماكفيل أن امرا ما قد حدث لمس تومسن فقال : « ماذا هناك ؟ هل آخذ معى حقيبتى ؟ ولكن هورن لم يقل شيئا أكثر من حثه على الاسراع بحركة من يديه صاحبها بهمسة قلقة : (اسرع .. أسرع ..) .

وعاد الدكتور الى غرفته متسللا فى حذر ، وارتدى معطف المطر على بيجامته ، وانتعل حذاء ذا نعل من المطاط ، واجتهد ان يلحق بالمستر هورن مسرعا ، وأخذا يهبطان السلالم معا على رؤوس أصابع أقدامهما .. كان باب الشارع مفتوحا ، وقد وقف عنده بضعة أشخاص من الوطنيين .

واذ ازداد الموقف غموضا تردد ماكفيل لحظة وهو يقول : « ولكن .. ولكن ماذا هناك .. ما هى المسألة ؟ » .

ـ تعال .. تعال معى ..

ثم مشي يتبعه ماكفيل ، ومشى الوطنيون خلفهما وبعد أن عبروا الطريق ووصلوا الى الشاطىء الرملى رأى الدكتور عدداً آخر من الوطنيين واقفين حول شيء ملقى على حافة الماء ، فأوسع الجميع خطاهم مسرعين بضع ياردات .. وما كاد يصل ماكفيل وهورن الى موقع التجمع ، حتى تفرق الواقفون يفسحون الطريق لهما .

وتقدم هورن يدفع الدكتور أمامه .. ليرى منظرا رهيبا صاعقا ..

جثمان مستر دافيدسن منكفئا على وجهه .. نصفه فى الماء والنصف الآخر خارجه على الرمال . واذ كان ماكفيل ممن لايفقدون ثباتهم فى الحالات الطارئة المماثلة بحكم تجاربه كطبيب فقد انحنى على الجثة ، وقلبها ، ليرى رقبة دافيدسن مقطوعة من الأذن الى الأذن وكانت الموسى التى تم بها الانتحار ماتزال فى يده .

قال الدكتور ماكفيل : ـ « الجثة باردة تماما .. لابد أنه قد مات منذ وقت .

وقال هورن : « أحد الصبية رآه ملقى هكذا وهو يذهب الى عمله ، فأسرع يخبرنى حالا . ولكن هل تظن انه هو الذى فعلها بنفسه ؟ »

ـ أجل دون شك .. ويجب اخطار البوليس ..

ورطن هورن بضع كلمات مع الوطنيين المتجمعين حول المشهد ، فأسرع شابان منهم الى الطريق .. وعقب الدكتور : ـ « يجب أن نتركه على وضعه الى أن يحضروا » .

وأسرع هورن يقول : ـ « يجب ألا يأخذوه الى بيتى .. لا .. لا أريده فى بيتى ابداً» .

وقال ماكفيل فى هدوء : ـ « ستفعل ما تأمرك به السلطة ياهورن .. ولكنى أرجح أنهم سيأخذونه من هنا الى المقبرة . »

ووقفوا ينتظرون حيث هم .. واخرج هورن سيجارة من طية من طيات (اللافا لافا) وقدمها الى الدكتور وأخذ أخرى لنفسه .. ووقفا معا يدخنان ويعاودان النظر الى

الجثـة صامتـين الى أن قال هورن متسائـلا : ـ « ولـكن .. لماذا تظنـه فعـل ذلك بنفسه ؟ » .. ولم يجد ماكفيل مايجيب به ، فالتزم الصمت الى أن جاء البوليس المحلى برئاسة رجل من القوات البحرية ومعهم نقالة .. وما كادوا يصلون ، حتى جاء فى أعقابهم طبيب من اطباء الأسطول يرافقه احد الضباط . وقد عالجوا الموقف بأسلوب عملى اذ قال الضابط : ـ « وماذا عن الزوجة ؟ » وهنا قال ماكفيل : « الآن وقـد جئتم ، فلابد لى أن أعود الى البيت ، لأرتفق مايلزمنى وسأرى ما اذا كان الخبر قد بلغها أم لا .. ولكن يبدو لى انه لايحسن أن تراه على هذه الحال . »

وعقب الدكتور البحرى : « بلى .. اظنك على حق .. » .

وما كاد ماكفيل يرى زوجته فى غرفتها حتى وجدها قد فرغت من ارتداء ملابسها متأهبة للخروج ، وسرعان ماقالت حين رأته : « مسز دافيدسن فى حالة يرثى لها من القلق على زوجها .. اذ لم يعد اليها طيلة الليل ، وكل ماتعلمه عنه ، إنها قد سمعته وهو يترك غرفة مس تومسن فى الثانية بعد منتصف الليل .. ولكنه لم يصعد الى غرفته فاذا كان يتمشى على الشاطىء منذ ذلك الوقت ، فلابد أن يكون قد هلك اعياء » .

ودون أن يعنى بالتعليق على ماقالته زوجته اكتفى ماكفيل بأن يخبرها بالواقع وأن يطلب منها أن تبلغ الخبر للمسز دافيدسن .

وتساءلت مسز ماكفيل وقد صعقتها المفاجأة : « ولكن .. ولكن لماذا فعل ذلك بنفسه ؟ »

ـ لست أدرى .

ـ ولكن .. ولكن لا أستطيع أن أخبرها .

ـ بل يجب .. يجب أن تخبريها .

وتطلعت فى وجهه بعينين يحملق فيهما الرعب والانفعال ثم .. بعد تردد لحظـات خرجت .. وسمعها تدخل غرفة مسز دافيدسن .. وتريث بضع دقائق استجمع خلالها حواسه وجأشه ثم شرع يحلق ذقنه ، ويغسل وجهه . وبعد أن فرغ من ارتداء بدلته جلس على حافة سريره ينتظر زوجته التى جاءت أخيرا وهى تقول : « انها تصر على أن تراه » .

ـ لقد أخذوه الى المقبرة .. فيحسن لذلك أن نصحبها الى هناك .. ولكن كيف استقبلت الخبر ؟

ـ صعقت بالطبع .. ولم تبك .. ولكنها ترتعش كأوراق الشجر ..
ـ أظن أنه يحسن أن نذهب بها حالا .

وعندما طرقا الباب خرجت اليهما مسز دافيدسن .. كانت بالغة الشحوب ، ولكن لا أثر فى عينيها للدموع .. ورجح لدى الدكتور ماكفيل أنها هادئة الطائر رابطة الجأش .. ولم تنبس هى ، أو هما ، بكلمة .. انطلق ثلاثتهم فى صمت الى الطريق .. ولكن عندما وصلوا المقبرة تكلمت مسز دافيدسن فقالت : « دعونى ، أدخل وأراه .. بمفردى . »

ووقف ماكفيل وزوجته جانبا بينما فتح لها احد الوطنيين باب المقبرة ثم أغلقه خلفها فظلا ينتظرانها ، وجاء رجل أو اثنان من الأوروبيين أخذا يتحدثان اليهما فى صوت هامس .. وقص عليهما الدكتور ماكفيل مايعرفه عن المأساة .. ولم يطل انتظار الجميع ، فقد فتح باب المقبرة أخيرا فى هدوء وخرجت مسز دافيدسن ثم قالت : « انى مستعدة للعودة الآن .. » .

وكان صوتها ، وهى تقول هذه الكلمات ، صريحا ثابتا ، .. ولم يستطع الدكتور ماكفيل أن يستشف معنى النظرة التى كانت تستقر فى عينيها .. ولكن وجهها كان بالغ التجهم والعبوس .

وأخذ الجميع طريق العودة فى بطء دون أن ينبس أحد منهم بكلمة .. ووصلوا أخيرا الى منعطف على الرصيف المقابل الذى يقوم عليه منزلهم ، وماكادوا ، حتى ندت عن صدر مسز دافيدسن شهقة .. ووقف الجميع لحظة صامتين ، فقد صك اسماعهم صوت صعب عليهم أن يصدقوا أنه هو .. كان الجراموفون الذى خرس طيلة الأيام الماضية ، قد عاد الآن يرسل صوته عاليا مبتذلا كالعهد به من قبل .

وقالت مسز ماكفيل بصوت يتحشرج انفعالا : « ماذاك ؟؟ » ولكن مسز دافيدسن لم تزد على أن قالت : « دعينا نمشى » .

ومشوا فى الممر ، ودخلوا القاعة ، حيث رأوا مس تومسن تتبادل الحديث مع أحد البحارة ، وقد طرأ عليها تغير مفاجىء . اذ لم تعد هى تلك المرأة التعسة التى عرفوها خلال الأيام الماضية .. كانت فى أبهى حالاتها .. ارتدت حلتها البيضاء وارتفقت حذاءها الأبيض اللامع ذا الحافتين الطويلتين اللتين تبرز عليهما نهايتا ساقيها السمينتين فى الجوربين القطنيين . أما شعرها فقد صففته فى تنسيق محكم دقيق تحت قبعتها الضخمة المزينة بالأزهار الكبيرة ، وقد غمر وجهها بالمساحيق والألوان ، وحاجباها قد زججا ، ودعجا مع العينين فظهرا فاحمى السواد ، وتوهجت شفتاها دعاءتين باللون القرمزى .. ووقفت هى منتصبة القامة فى شموخ وتحد جريئين .. كانت هى نفسها ، تلك الملكة المزهوة الشامخة التى عرفوها حين رأوها لأول مرة .

وما كادوا يدخلون وتراهم ، حتى اطلقت ضحكتها العالية الصاخبة .. وعندما وقفت مسز دافيدسن مضطرة ، ريثما يتقدمها من يمشى معها ، جمعت الفتاة بصقة كبيرة فى فمها ثم بصقتها على الأرض .. وتراجعت مسز دافيدسن مرتبكة مذعورة الى الوراء ، وانتشرت على وجنتيها بقعتان حمراوان ، ثم انحرفت قليلا ، وأسرعت تصعد السلالم وقد دفنت وجهها فى كفيها المرتعشين .

ثار الدكتور ماكفيل للاهانة القذرة فدفع الفتاة الى غرفتها وهو يقول : « ما هذا الذى تفعلينه ؟ أوقفى هذا الجراموفون اللعين » .

ثم اندفع حيث يربض الجهاز ، وأخرج الأسطوانة وقذف بها بعيدا فى الغرفة .
ولكن مس تومسن التفتت اليه التفاتة حادة وقالت بصوت آمر :

ـ اسمع يادكتور .. ليس لك ان تفعل هنا شيئا .. ثم بأى حق تقتحم علىّ غرفتى ؟

ـ ماذا ؟ ماذا تقصدين ؟ ماذا ؟؟

ووقفت لحظة ، كأنها تستجمع كل مشاعرها وإحساسها .. ولاسبيل الى وصف الازدراء والتقزز اللذين عبرت عنهما قسماتها وعيناها ، أو الاحتقار المشمئز الذى ملأت به كلماتها وهى تقول :

ـ كلكم سواء .. أيها الرجال .. أيها الخنازير القذرة .. كلكم سواء كلكم .. كلكم سواء .. خنازير .. خنازير .

وندت عن صدر الدكتور ماكفيل شهقة خافته ..

وقد فهم ..




رجل
سعيد

رجل سعيد

كان ريتشارد هارينجر رجلا سعيدا .

وعلى الرغم مما يدفع به المتشائمون فى كل زمان ومكان ، مستنكرين أومنكرين مثل هذا الخبر ، فان وجود رجل سعيد في هذا العالم التعس ليس بالأمر النادر حقا . . ولكن أن يعلم ويسلّم ريتشارد هارينجر نفسه بأنه سعيد ، هو الأمر الغريب النادر دون شك .

ولاريب عند ريتشارد فى أن الفضائل والمثل التى نادى بها ودعا اليها القدماء ، وبالغوا فى تقديرها والاشادة بها كسبيل للسعادة ، قد اصبحت شيئا عفّى عليه الزمن . واولئك الذين يتحلون بها اويسلكونها طريقا الى السعادة المثلى التى يحلمون بها ، ينبغى ان يروضوا انفسهم على احتمال السخرية المؤدّبة يلاحقهم بها اولئك الذين لايؤمنون بجدوى ضبط النفس ولايرون كبير عائد مجد فى فضيلة الفطرة السليمة . . ولكن ريتشارد هارينجر يهز كتفيه استهانة واستهجانا بالسخرية المؤدبة ، بل ويبتسم عجبا لها ، وتتقارب لديه الحدود فلايعنيه من قضايا الناس ومشاكلهم مايعنى أو يشغل سواه . . ومنطقه يقول : فليعش الغير فى خطر ماحق أو ليحترقوا فى اللهب ، أو ليسلكوا السبل التى تنتهى بهم الى النصر أوالقبر ، وليجازفوا بحياتهم فى سبيل قضية ، أوليقدموها قربانا فى هيكل الحب أو ليحرقوها فى جحيم المغامرة وراء أحلام البطولة والمجد . . ليفعلوا كل هذا ، فأنه لايغبطهم على مايحرزونه من مجد إذا انتصروا ، ولن يذرف على مصيرهم التعس دمعة واحدة إذا انتهى بهم الصراع والنضال الى كارثة

ومع كل هذا فلا ينبغى ان تظن ان ريتشارد هارينجر كان رجلا أنانيا ، أوصفيق الاحساس أومعدمه باية حال . . كان فى الواقع رجلا حصيفا ، يغلب عليه التعقل والاعتدال . . وهو الى ذلك كريم ، متأهّب دائما لنجدة أصدقائه ، وهو على جانب من اليسر ولين الحياة يتيحان له أن يستمتع باللذة التى يجدها المرء فى مساعدة الآخرين ، فقد كان يدّخر بعض المال ، ويشغل منصبا مرموقا يتقاضى منه راتبا طيبا ، وكان عمله

يروقه ويرضيه ، إذ كان منظما ذا مسؤولية ، ولايخلو من اهمية ومتعة ، وهو عندما يغادر مكتبه كل يوم يذهب الى النادى حيث يقضى ساعتين يلعب البريدج ، كما كان يلعب الجولف فى يومى السبت والأحد من كل اسبوع . وكان يقضى عطلاته واجازاته فى الخارج ، حيث ينزل فى الفنادق الممتازة ، ويزور المتاحف والكنائس والمعارض الفنية ، وقاعات الموسيقى . وكان مغرما بالسهر ، وكثيرا ما كان يتناول عشاءه فى المطاعم المعروفة باطباقها وخدمتها الدقيقة ، وهو محبوب من عارفيه واصدقائه ، متواضع ، سرعان ماتتوشّج بينه وبين الناس علاقات الصداقة والود . . واسع الاطلاع والخبرة بالناس والحياة . . لطيف المعشر ، رحب النفس ، وجيه المظهر . ليس جميلا ، ولكنه طويل القامة ، رشيق ، منتصب المشية ، نحيف الوجه ، فى طلعته وملامحه مايدل على ذكائه . . بدأ شعره يخف ، إذ قد أوشك ان يبلغ الخمسين من العمر ، ولكن عينيه مازالتا تحتفظان بالبشر والابتسام ، وأسنانه ماتزال فى مكانها الذى نبتت فيه ، وقد وهبه الله بنية قويّة مشدودة ، وقد عنى دائما بصحته .

فلهذا ـ كله ـ لم يكن هناك سبب يمكن أن يجعله رجلا تعسا غير سعيد . . ولو أن فيه أى بذرة للزهو والخيلاء لأدعّى ان السعادة حق ليس لأحد أن يعارضه فيه .

وكان ريتشارد هارينجر الى ذلك ، رجلا قد حالفه الحظ والتوفيق اذ استطاع ان يسير مطمئنا فى منعرجات الزواج ومضايقه الخطرة التى طالما تحطمت فيها سفن الكثيرين من عقلاء الرجال واخيارهم . ففى مطلع العشرين من عمره تزوج عن حب ، ثم بعد مرور بضع سنوات من حياة هانئة ناعمة مع زوجته اخذ كل منهما يبتعد عن الآخر . ولم تكن لأحد منهما رغبة فى الزواج من مخلوق آخر ، ولذلك فلم يكن هناك مايستلزم اللجوء الى الطلاق . . ورغبة منهما معا فى حل موفّق ، اتفقا ـ بمساعدة محامى الأسرة ـ على الانفصال الذى اطلق لكل منهما حرّيته فى أن ينهج النهج الذى يلائمه فى الحياة دون تدخّل الآخر ، فافترقا ، وكل منهما يكن لصاحبه الاحترام ويتمنى له أطيب التمنيات .

وقد باع ريتشارد هارينجر بيتاله فى غابة سان جون ، واستاجر شقة على مقربة من وايت هول ، تتكون من غرفة للجلوس وضع فيها كتبه ، وغرفة للمائدة تلاءمت تمام التلاؤم مع الأثاث الذى كان لديه . . ثم غرفة لنومه ، بالاضافة الى غرفتين للخادمات

وراء المطبخ . وجاء من المنزل الذى باعه بالطاهية التى ظلّت تخدمه منذ سنوات كثيرة ، وإذ لم يكن فى حاجة الى بقية الخدم ، فقد استغنى عنهم جميعا . . ثم طلب من مكتب التخديم ان يبحث له عن مدّبرة منزل . . واذ كان يعرف بالضبط مايريد فقد اوضح لمديرة المكتب رغبته وشروطه بتفصيل دقيق للغاية .

فهو لايريد مدبرة فى عنفوان الشباب لأسباب : اولها ان الفتيات لاثبات لهن ، وثانيها لأنه وان كان قد بلغ من عمره حدا ينبغى ان يبعده عن الشبهات ، وهو رجل ذو خلق ومبدأ ، فان البواب ، والبقال وامثالهما ـ ان لم يكن جميع الناس ـ قد لايلتزمون الصمت .

ولذلك فان مدبرة منزله ـ حرصا على سمعته من جهة ، وعلى سمعة الفتاة الشابة ايا كانت من جهة اخرى ـ يجب ان تكون قد بلغت سن الرشد والتعقل . ثم هو يشترط فيها ان تعرف كيف تُعنى وتنظّف وتهتم بفضياته . . فقد ظل دائما مغرما ومزهوا بالفضيات القديمة ، ومن حقه أن يطالب بالعناية بالشوكات والملاعق والسكاكين التى استعملتها سيدات من علية القوم فى عهد الملكة (آن) . . .

وكان مضيافا ، يحب أن يدعو فى كل اسبوع مالايقل عن اربعة ، ومالايزيد عن ثمانية أشخاص لتناول العشاء فى بيته . . وهو يستطيع أن يثق بالطاهية وبقدرتها على تقديم الألوان التى يفضّلها ضيوفه ، ويطلب فى مدبرة منزله ان تكون أهلا لخدمة المائدة وحولها ضيوفه ، على وجه مرض . وهو من الذين يعنون بأناقة الهندام ، بالطريقة التى تتلاءم مع سنه ووضعه الاجتماعى ، ولذلك ، فهو يحب أن تتوفر فى مدبرة منزله القدرة على العناية بهندامه ، وان تعرف كيف تكوى سراويله وربطات عنقه ، ولأنه دقيق فى ضرورة تلميع حذائه الذى يخرج به ، اذ كانت قدماه صغيرتين ، ويبذل جهدا خاصا فى احكام تفصيل احذيته ، وعنده منها عدد وافر ، فهو ينشد فى مدبرة منزله القدرة على ان تلمّع وتعد الحذاء الذى يلائم ملابسه عند خروجه كل يوم .

وأخيرا . . فان الشقة كلها يجب ان تظل كاملة النظافة والترتيب والتناسق . ومن المفروغ منه أن التى سترشح لشغل هذه الوظيفة فى بيته ، يجب ان تكون نقية السمعة ، شريفة يوثق بها ويعتمد عليها ، وايضا ذات مظهر مقبول . . وفى مقابل هذا كله

سيدفع أجرا طيبا وحرية معقولة واجازات وافرة .

وأصغت مديرة المكتب الى ريتشارد هارينجر دون ان يختلج لها جفن ، وإذ قالت له: انها متأكدة تماما من انها سترضيه ، فقد بعثت اليه عددا ممن لديها من المرشّحات لمثل هذا العمل ، ادرك من نظرة واحدة اليهن ان مديرة مكتب التخديم لم تول كلمة واحدة من شرحه الطويل اية عناية أوفهم اواهتمام . فان بعضهن كنّ غير لائقات أصلا ، وبعضهن كنّ مندفعات المزاج ، وبعضهن متقدمات فى السن ، وأخريات كن صغيرات يافعات . . الخلاصة لم يجد بين من قدّمن اليه واحدة يمكن ان تقبل حتى مجرد تجربتها . . وكان مؤدبا لبقا فاستطاع أن يرفض عروضهن بابتسامة ، وتعبير مرض عن الأسف ، ولكنه ـ مع ذلك لم يفقد صبره وأمله ، وقد ظل مستعدا لمقابلة جميع من يعرضن عليه الى ان يعثر على ضالته .

وما أعجب مفارقات الحياة فانك حين تصر على ألا تقبل الا الأفضل والأكثر امتيازا ولياقة ، فانك فى النهاية حاصل على ماتريد . واذا رفضت كليا أن تساير الواقع وان تقبل مايتاح لك فإنك بطريقة أوبأخرى ستفوز بطلبك وان طال بك الانتظار . وكأن القدر يقول : « هذا مخلوق ينشد الكمال ، وأنه لبالغ الحمق والغفلة . . ولكن ماهى الا غفوة يغفوها القدر نفسه ، فاذا بالمطلب العسير ، والأمنية الشاردة قد سقطت فى أحضان طالبها العنيد .

وهذا ماحدث ذات يوم بالنسبة لمطلب ريتشارد هارينجر ، اذ جاء بواب العمارة يقول :

ـ اسمع انك تبحث عن مدبرة منزل . . وهناك واحدة أعرف أنها تبحث عن عمل كهذا .

ـ هل تستطيع ان تزكيها وتشهد لها شخصيا ؟ ؟

وكانت لدى ريتشارد هارينجر فكرة ثابتة عن أن شهادة خادم وتزكيته لخادم آخر أجدر بالثقة والاعتماد من شهادة مكتب تخديم ايا كان .

وقال البواب :

ـ أستطيع أن أزكى سمعتها ولياقتها . فقد كانت تخدم فى بيوت محترمة جدا .

ـ حسنا ساجىء لتغيير ملابسى فى تمام السابعة ، فاذا كان هذا الوقت يلائمها ، فانى

أستطيع أن أقابلها فيه .

ـ حسنا ياسيدى ، فسأخبرها بذلك .

ولم يكن هارينجر قد قضى فى شقته خمس دقائق بعد عودته فى السابعة لارتداء ملابسه حين دخلت عليه الطاهية ، بعد أن استطلعت من يرن جرس الباب ، وقالت له: إن التى حدّثك عنها البواب قد حضرت . . فقال ريتشارد :

ـ دعيها تدخل .

ثم ادار مفاتيح بقية المصابيح فى الغرفة ليرى بوضوح كل شىء فى مظهر المخلوقة التى ترشّح نفسها لخدمته . . ثم قام ووقف وظهره الى المدفأة ، وماكاد ، حتى دخلت امرأة ووقفت على عتبة الباب فى وضع متأدّب محتشم . . وإذ رآها قال :

ـ مساء الخير . . ما أسمك ؟ ؟

ـ بريتشارد ياسيدى .

ـ وكم عمرك ؟ ؟

ـ خمس وثلاثون سنة ياسيدى

ـ حسنا . . هذه سن معقولة .

وسحب أنفاسا من سيجارته ثم نفثها فى الهواء ، وأخذ يتأملها بامعان .. كانت أقرب الى الطول ، او تكاد تقاربه طولا .. ولكنه قدر انها ربما كانت تنتعل حذاء عالى الكعبين . وكانت حلتها سوداء منسجمة عليها تماما ، وقد وقفت منتصبة نشيطة ، بشكل أظهر انها تتمتع بجسم مقبول .. وكان لونها نقيا جميلا . وسألها :

هل لك أن تخلعى قبعتك عن رأسك ؟ ؟

واذ فعلت ما طلب رأى ان لها شعرا بنيا قاتما ، وقد احكمت تصفيفه وتنسيقه . وقد بدت قوية صحيحة البنية ، ليست بالسمينة المترهلة ، ولا بالنحيلة ، أو الهزيلة العجفاء .. واذا ما ارتدت حلة ملائمة ، فسيكون لها امام ضيوفه مظهر مقبول .. ولم تكن جميلة الى الحد الذى يبتعد عن رغبته ، ولكنها كانت ـ دون شك ـ جميلة . ولو كانت من طبقة أخرى فى المجتمع لأمكن أن تعد من الجميلات .

وشرع يوجه اليها سلسلة من الاسئلة .. وكانت أجوبتها على اسئلته كلها مقنعة مرضية . فقد تركت آخر بيت تخدم فيه لأسباب معقولة ، وقد مارست مهنتها تحت يد كبير الخدم ، واصبحت تعرف جميع واجباته تماما . وكانت في آخر بيت تركته رئيسة لثلاث وصائف .. ولكنها لا تجد ضيرا فى ان تدير اعمال شقته منفردة دون مساعدة احد ، ثم قد سبق لها ان قامت باعمال خادم الملابس (......) وقد أرسلها سيدها الى احد الخياطين فتعلمت منه الكى ، وكان يغلب عليه الخجل والارتباك قليلا ، ولكنها لم تكن محجمة ولا منطوية . وقد وجه اليها ريتشارد اسئلته بأسلوبه المتودد الخالى من التكلف والاستعلاء ، فاجابته على كل سؤال بأسلوب لبق ومؤدب لطيف .. واذ استحوذت على إعجابه سألها أخيرا عمن يمكن أن يشهد لها او يعرفها وكان جميع من ذكرتهم ممن يقنع بهم ويرتضى تزكيتهم فعلا فقال :

ـ والآن اسمعى .. انى لأميل كثيرا الى استخدامك ، ولكنى اكره التغيير وقد احتفظت بطاهيتى اثنى عشر عاما ... فاذا اعجبتنى ، ووجدت انت المكان ملائما لك فانى أتمنى أن تقيمى .. أعنى ألا تجيئى الى بعد ثلاثة او اربعة شهور لتقولى انك ستتركين خدمتى لأنك ـ مثلا ـ ستتزوجين .

ـ من هذه الناحية لا تخف . فانى أرملة ، ولا اعتقد ان فى الزواج فرصة ذات قيمة بالنسبة لى او لأى مخلوق فى مثل وضعى .. ان زوجى لم يقم باى عمل منذ تزوجته الى ان مات ذات يوم .. لقد كان على أن أنفق عليه .. وكل ما اريده الآن هو بيت طيب وكفى .

وقال ريتشارد مبتسما :

أكاد أتفق معك فى هذا .. ان الزواج شيء جميل جدا .. ولكنى أعتقد أن الخطأ هو أن يجعل منه المرء عادة .

ولم تحر جوابا ، ولكنها انتظرت ان يعلن قراره ، دون ان يبدو عليها انها قلقة على هذا القرار .. وقطع صمته يقول : انها اذ كانت اهلا للعمل عنده كما يبدو من مظهرها ، فان عليها ان تدرك تماما أنها ستجد عنده المكان الذى تريد .. ثم اخبرها عن الأجر

الذى سيدفعه لها ، وقد اعلنت انه ملائم ويكفيها .. وحين اخذ يشرح لهـا بعض المعلومات الضرورية عن المكان افهمته أنها تعرف كل شيء . واستقبل ما قالته عن انها قد قامت بشيء من الاستعلام عنه وعن بيته قبل مجيئها ، فى شيء من المرح والسرور ثم قال :

ـ متى تودين أن تبدئى اذا استخدمتك ؟. ليس لدى احـد فى الوقـت الحـاضر والطاهية تبذل جهدها مع ما تقوم به من واجباتها .. ولكنى أحب أن أفرغ من هذه المسألة بأسرع وقت مستطاع .

ـ حسنا يا سيدى .. لقد كنت على أهبة أن أعطى نفسى اجازة أسبوع واحد ، ولكن اذا كان فى الأمر ما يسرك ، فلا مانع لدى أن أستغنى عن عطلتى ، وان ابدأ العمل من الغد .. اذا كان هذا يرضيك .

وابتسم لها ريتشارد هارينجر ابتسامته الجذابة وهو يقول :

ـ لا أحب أن تستغنى عن اجازتك التى اعتقد انك ربما كنت تنتظرينها طويلا .. وأستطيع أن أنتظر أسبوعاً آخر .. فاذهبى واستمتعى بها ، وتعالى حالما تفرغين .

ـ أشكرك يا سيدى .. هل يسرك ان اجيىء بعد نهاية الأسبوع تماما ؟ ؟

وحين غادرته أحس انه قد أنجز عملا هاما . وبدا له أنه قد وجد ما ظل يبحث عنه طويلا . وضغط على زر الجرس للطاهية وقال لها : انه قد وجد مدبرة لمنزله أخيرا فقالت الطاهية :

ـ أظنك سترضى عنها يا سيدى .. لقد جاءت وتحدثت الى بعد ظهر اليوم ولقد رأيت للتو انها تعرف واجبها .. وهى ليست من اولئك الطائشات اللائى لا يستقررن ولا يثبتن على حال .

ـ أرجو أن يكون الامر كذلك يا مسز جيدى .

ـ ولقد قلت لها ان لك ذوقا خاصا . وانك سيد دقيق المطالب .

ـ حقـا .. قلت لهـا

ـ قالت انها:لا تهتم لذلك كثيرا ، وهى تحب السيد الذى يعرف ما يريد .. وقالت: انه لا جدوى فى العمل المتقن اذا لم يكن وراءه من يلاحظه ويهتم له .. أعتقد أنك ستعجب بعملها اعجابا كبيرا .

ـ وهذا ما أنتظره .. وعسى أن تصدق الظنون .

ـ حسنا يا سيدى . فالتجربة أعظم برهان حقا . ولكن اذا سألتنى رايى فانى أعتقد أنها ستكون كنزا .

وهذا ما أثبتته الايام فيما بعد . اذ لم يكن هناك من يفوقها خدمة لسيدها وعناية به . لقد كانت الطريقة التى تلمع بها الحذاء رائعة ، حتى لقد أصبح يخرج الى عمله الرسمى كل يوم بخطوات اخف وارشق . وقد عنيت بملابسه عناية بلغ من دقتها أن أخذ زملاؤه يتحدثون عنه باعتباره اوجه رجل فى ادارته . وحين عاد ذات يوم فى غير موعده وجد صفا من الجوارب والمناديل المغسولة منشورا على حبل فى الحمام فاسرع يناديها . وحين جاءته قال :

هل تغسلين جواربى ومناديلى بنفسك ؟ كان ينبغى ان اشعر ان لديك الكفاية من العمل والواجبات .

ـ انهم يتلفونها يا سيدى .. ولذلك فانا افضل ان اغسلها فى البيت .. اذا لم يكن لديك مانع .

وكانت تعرف بدقة ، ما ينبغى ان يرتديه من البدل فى كل مناسبة من المناسبات . وكانت دون أن تسأله تعرف ما اذا كان سيرتدى معطفا اسود ، وربطة عنق سوداء فى المساء ، ام معطفا آخر وربطة عنق فاتحة او بيضاء . وحين يكون ذاهبا الى حفلة رسمية تستلزم تعليق الاوسمة ، فانه يجد الصف القصير من الاوسمة التى حازها قد وضعت فى مكانها من المعطف . ولم يعد يختار فى كل صباح ربطة العنق التى يريدها لانه يجد انها قد وضعت له الربطة التى كان سيختارها .. وكان ذوقها فى اختيار ما يلائمه رائعا كاملا من جميع الوجوه .

وأخذ يقول فى نفسه:انها ربما كانت تقرأ رسائله لانها كانت تعلم دائما متى يذهب

ومتى يعود . واذا حدث ان نسى موعدا فانه لم يكن يحتاج الى ان يرجع الى مفكرته ، لأن بريتشارد تستطيع ان تذكره بما نسى ، وان تخبره بما يسأل عنه .. وكانت تعرف اى لهجة ينبغى ان تستعمل مع من يتصلون تليفونيا بالمنزل بحثا او استفسارا عن سيدها . وباستثناء البقال واصحاب المحال التجارية التى يعاملها ، فانها كانت دائما بالغة الرقة والتأدب واللطف .. ولكن سرعان ما تتغير لهجتها وأسلوبها اذا كانت تحدث صديقا من أصدقاء مستر ريتشارد الادباء ، او زوجة من زوجات الوزراء .. كانت تعرف بغريزتها من هم الذين يحب ان يتحدث إليهم ، ومن هم اولئك الذين يضيق باتصالاتهم .. وحين يكون جالسا فى غرفته بعض الاحيان يسمعها تؤكد لسامعها فى التليفون بلهجة تفيض صدقا واخلاصا ، ان سيدها لم يعد بعد . ثم تدخل عليه وتخبره ، ان فلانة او فلانا قد طلبه فى التليفون ، ولكنها رجحت انه لا يود ان يزعجه احد فى هذا الوقت , فيقول ريتشارد مبتسما : تماما ... تماما وتجيبه هى :

ـ ادركت انها ستضايقك بثرثرتها عن مؤلفها الموسيقى .

وكان أصدقاؤه ياخذون مواعيدهم معه عن طريقها ثم حين يعود فى المساء تخبره فتقول :

ـ لقد طلبتك المسز سوام بالتليفون يا سيدى ، وسألت ما اذا كنت تحب ان تتناول غداءك معها فى يوم الخميس . ولكنى قلت لها انك آسف جدا لأنك ستتغدى مع الليدى فيرسنيدر .. وقد طلبك مستر اوكلى ايضا ، وسأل ما اذا كنت تحب ان تذهب الى حفلة الكوكتيل فى سافوى يوم الثلاثاء القادم فى الساعة السادسة .. وقد قلت له:انك تحب ان تذهب اذا استطعت .. ولكنك قد تذهب الى طبيب الاسنان .

ولا يسع ريتشارد الا ان يهتف قائلا : تماما .. تماما يا بريتشارد ـ وتواصل هى حديثها قائلة :

لقد قدرت انك ستتخذ قرارك حين يحين الوقت يا سيدى .

أما الشقة فقد كانت كالدبوس الجديد نظافة وتالقا والتماعا . وقد حدث مرة بعد التحاقها بخدمته ، ببضعة ايام ، ان عاد ريتشارد من عطلة نهاية الاسبوع ، واخذ كتابا يريد قراءته من مكانه فى الرف ، وسرعان ما لاحظ انه نظيف قد نفض عنه

الغبار .. فاسرع يضغط زر الجرس . وحين مثلت أمامه قال :

لقد نسيت ان اخبرك عند ما ذهبت ألا تمسى كتبى اطلاقا مهما كانت الاسباب . فان الكتب حين تخرج من مكانها لنفض الغبار عنها لا تعاد اطلاقا الى المكان الذى اضعها فيه .. ولا يهمنى ان تكون كتبى مغبرة ، ولكنى اكره ان أبحث عنها فلا أجدها .

ـ فاجابت بريتشارد :

آسفة جدا يا سيدى .. فانى قد جربت حرص بعض السادة ، ودقتهم فى مثل هذه الامور ، ولذلك فانى احرص تمام الحرص على ان اضع كل كتاب فى المكان الذى آخذه منه بالضبط .

والقى ريتشارد هارينجر نظرة على كتبه ، وقد رأى ان كل ما شملته نظرته منها كان فى مكانه المعتاد تماما فابتسم وهو يقول : انى اعتذر يا بريتشارد ..

لقد كانت غارقة فى التراب يا سيدى .. اقصد انه لم يكن يسعك ان تأخذ اى واحد منها دون ان تسود يداك بما عليه من غبار .

ولا شك انها قد عنيت بفضياته العريقة عناية لم يعرف لها مثيلا قط ، بحيث احس ان عليه ان يسمعها كلمة تقدير واطراء ، فقال يخلق مناسبة الحديث عن فضياته :

ـ انك تعلمين ان معظمها من عهد الملكة (آن) والملك جورج الاول .

ـ أجل يا سيدى .. وحين تكون لديك مقتنيات ثمينة جديرة بالعناية كهذه فانه لما يسر المرء ان يعنى بها على احسن وجه .

ـ لا شك ابدا فى انك بارعة فى الاهتمام بمثل هذه المقتنيات .. ولم اعرف قط رئيس خدم يعنى بها عنايتك .

ـ الواقع ، ليس للرجال صبر على مثل هذه الاعمال .. هذا هو السبب يا سيدى .

وما كاد يشعر أنه قد استقر بها المقام فى منزله أخيرا حتى استأنف عادته فى دعوة أصدقائه للعشاء مرة فى الأسبوع ... وكان قد اكتشفت أنها تعرف كيف تتعامل مع الضيوف على المائدة .. ولكنه استطاع أن يدرك بروح الملاطفة التى يعاملها بها مدى نجاحها فى إقامة الحفلة والإشراف على كل لازمة من لوازمها .. فقد كانت سريعة الحركة فى صمت وترقب . فلا يكاد الضيف يهم بأن يعلن عن رغبته فى شيء ما حتى تكون هى واقفة إلى جانبه تقدم له مايريد ، وسرعان ماعرفت أذواق المقربين إليه من أصدقائه .

واصبحت برتشارد مضرب المثل اذ سرعان ما عرفت بأنها مدبرة المنزل المثالية ... وقد اصبح الجميع لا يغبطون هارينجر على شيء كما يغبطونه عليها . كانوا يرددون انها تستحق وزنها ذهبا ، بل هى اغلى من نادر الجوهر .. فكان ريتشارد هارينجر يزهو ويختال حين يسمع اطراءهم لها ثم يقول مغتبطا : الطيبون من السادة يستخدمون الطيبين من الخدم ..

وفى ذات ليلة حين كان يجلس مع اصدقائه ، وكانت قد تركتهم ، اخذوا يتحدثون عنها فقال احدهم : ستكون صدمة قاسية لو تركتك ..

ـ ولكن لماذا تتركنى ؟ ان شخصا او شخصين قد حاولا اختطافها منى ، ولكنها خذلت محاولتهما .. وهى تعرف جيدا المكان الذى تسعد فيه .

ـ ولكنها ستتزوج فى يوم ما .
ـ لا اظنها من هذا النوع .
ـ ولكن لها طلعة مقبولة حقا .
ـ ولو انها كانت من طبقة اخرى فى المجتمع ، لكانت ممن يشار اليهن بالبنان .. بل لرأيت صورتها فى كل صحيفة من الصحف .

وفى تلك اللحظة دخلت بريتشارد بالقهوة فتطلع اليها ريتشارد هارينجر ، وطاف بذهنه انه بعد ان ظل يراها كل يوم رائحة غادية امامه ، طيلة اربع سنوات ، قد نسى الآن ملامحها وقسماتها .. وتأملها لحظات .. لكم يفر الزمن حقا .. ولكنها لم تتغير كثيرا منذ رآها لأول مرة .. لم تكن اكثر امتلاء عما كانت من قبل ، وما يزال لها ذلك اللون

النقى الجميل ..وما تزال ملامحها المتناسقة تحمل نفس التعبير الذى لا يكاد يبدو فياضا بالمعانى والاحاسيس حتى يعود ناضبا فارغا فى الحال .. ما تزال حلة العمل السوداء منسجمة عليها كما بدت يوما منذ سنين . وقال احدهم وقد تركت الغرفة مرة اخرى .

- لا شك انها نموذج .. مثال .

- وأجاب هارينجر : اعلم انها كذلك حقا .. اعلم انها رائعة .. ولكن الشىء الغريب هو انى لا احبها كثيرا .

ولمــــاذا ؟؟؟!!

- اظن انها مملة نوعا .. قليلة الكلام .. لا قدرة لها على التفنن فى الحديث انها لتجيب على كل سؤال اوجهه اليها .. ولكن هذا كل ما فى الامر . وخلال هذه السنوات الاربع لم تتطوع قط بابداء اى ملاحظة خاصة بها .. وانا لا اعرف اى شىء ..

عنها إطلاقاً .. ولا أدرى ان كانت تحبنى أم أنها لا تشعر حتى بمجرد وجودى ... إنها آلة تدور لا أكثر ولا أقل .. وأنا احترمها واقدرها واثق بها وأنها لتتمتع بأجمل السجايا والخصال - وكثيراً ماسألت نفسى .. لماذا على الرغم من كل ما لها من الشمائل الحلوة والخصائص النادرة قد ظللت عديم الاهتمام بها ؟ . اعتقد أن السبب لا بد أن يكون هو خلوها من الفتنة .

وفى ذات ليلة بعد يومين أو ثلاثة من هذا الحديث - وكانت ليلة عطلة بريتشارد المقررة ، لم يكن ريشتارد هارينجر مرتبطا بموعد ما فتناول عشاءه فى ناديه . . وإذ كان جالسا بعد تناول العشاء ، جاءه احد خدم النادى وقال : « إن البيت قد اتصل بالنادى تليفونيا ليخبره انه قد خرج دون أن يأخذ مفاتيحه فهل يرسلونها اليه فى تاكسى ؟ » ووضع يده فى جيبه وتحقق من الأمر ، وكان ينوى ان يلعب البريدج ولكنها كانت ليلة عطلة فى النادى ايضا . ولم يبد له أن هناك أملا فى شوط لائق وملائم ، وخطر له أنها فرصة طيبة ليشهد فيلما سمع الناس يتحدثون عنه اخيرا . . وعلى هذا فقد طلب من الخادم أن يخبر بيته : « أنه آت ليأخذ المفاتيح بنفسه خلال نصف ساعة » .

وحين ضغط زر جرس الباب كانت برتشارد هى التى تفتحه وفى يدها المفاتيح . وماكاد يراها حتى قال :

ـ وماذا تفعلين هنا يابريتشارد . . أليست هذه ليلة عطلتك ؟ ؟
ـ أجل ياسيدى ، ولكنى لم أهتم بالخروج ، ولذلك فقد أخبرت مسز جيدى أن تخرج الليلة بدلا عنى .
ـ ولكن يجب ، حين تتاح لك الفرصة ان تخرجى . ليس مما يفيدك ان تحبسى نفسك هنا كل الوقت .
ـ إنى اخرج بين فترة واخرى حين يكون هناك مايستلزم الخروج . . ولكنى لم اخرج فى الليل ، طيلة الشهر الماضى .
ـ ولكن . . لماذا بالله ؟ ؟
ـ ليس مما يمتع المرأة كثيرا ان تخرج منفردة . . واكاد لاأعرف احدا يلذ لى الخروج معه .
ـ ولكن يجب ان تتيحى لنفسك شيئا من اللهو بين وقت وآخر . . ذلك يفيدك كثيرا .
ـ لقد تخلّصت من هذه العادة بعض الشىء .
ـ اسمعى . . أنا ذاهب الى السينما الآن ، فهل تحبين ان تجيىء معى ؟ ؟

وقد تقدم اليها بعرضه فى لطف ورقة ، وبوحى اللحظة دون سابق تفكير أوغرض ، وماكاد يفرغ من عرضه حتى أحسّ بانه يكاد يأسف لما تورّط فيه ، ولكنها قالت :

ـ اجل ياسيدى . . أحب أن اذهب معك .
ـ فاسرعى إذن ، وضعى على راسك قبعة .
ـ سوف لن اتاخر اكثر من دقيقة .

وغابت عن ناظريه ، ودخل هو الى غرفة الجلوس ، وأشعل سيجارة ، وقد أشعره مايفعل بالارتياح ، بل وبالسرور ايضا . وجال بذهنه انه ليس اجمل من أن يستطيع المرء ان يسعد شخصا آخر ، دون أن يتكلّف شيئا ذا بال . وكان مما يتفق مع خلق بريتشارد انها لم تدهش للعرض ، كما أنها لم تتردد . وقد تركته ينتظر نحو خمس دقائق . وحين عادت اليه لاحظ انها قد غيرت ملابسها ، فارتدت فستانا أزرق ، قدّر هو أنه من الحرير الصناعى ، وزينت رأسها بقبعة صغيرة سوداء محلاة ببروش ازرق ، وأحاطت

عنقها بفرو ثعلب فضّى . وقد استراح قليلا إذ رأى ان مظهرها لم يكن رثّا مقذيا ، كما لم يكن مسرف التزويق والبهرج . وسوف لن يخطر ببال اى شخص يراهما معا ، أن هذا الذى يراه : موظف كبير فى وزارة الداخلية ، ذاهب مع مدبّرة منزله الى إحدى دور السينما . وقالت :

ـ آسفة جدا . . فقد أطلت انتظارك ياسيدى . .

فأجابها فى تسامح وتودّد كريمين :

ـ لاعليك . . لاعليك إطلاقا .

وتقدّمها وفتح لها الباب الخارجى ، فخرجت أمامه . وتذكّر وهى تتقدمه فى الخروج نادرة لويس السادس عشر ونديمه . وقد حمد لها فى نفسه أنها لم تتردد فى أن تسبقه . ولم تكن دار السينما التى سيذهب إليها بعيدة عن شقّته ، فذهبا إليهـا مشيا على الأقدام . . وأخذ يبادلها الحديث فى الطريق عن الجو ، وحالة الطرق ، وعن آدولف هتلر . واستطاعت بريتشارد ان تبادله حديثه دون أن يخطئها التوفيق . وقد وصلا الدار فى اللحظة التى بدىء فيها بعرض مغامرات الفار ميكى ، فأشاع ذلك بينهما جوا من الفكاهة والمرح . . وندر خلال السنوات الأربع التى قضتها بريتشارد فى خدمة منزله أن رآها تبتسم ، وقد أمتعه وأطربه أن يسمع الآن رنين ضحكاتها واحدة إثر الأخرى . وقد سر واغتبط لسرورها . . ثم بدأ عرض الفيلم الرئيسى ـ وكان جيدا ـ فظلا يتابعانه فى تشوّق وشغف . . واذ أخرج علبة سجايره ليأخذ منها واحدة لنفسه ، وجد نفسه ـ دون قصد ـ يقدمها اليها فقالت وهى تأخذ لنفسها واحدة : « شكرا ياسيدى » .

وأشعل لها السيجارة ، وكانت عيناها على الشاشة ، وتكاد لاتعى ماتفعل أو يفعل هو . وعندما انتهى العرض ، انسابا فى الزحام إلى الشارع ، ومشيا فى اتجاه الشقة ، وكانت الليلة صافية تألّقت فى سمائها النجوم فقال :

ـ كيف وجدت الليلة ؟ ؟

ـ كأجمل وأمتع مايرام. . لقد كانت مأدبة كاملة .

وابرق بذهنه خاطر فقال :

ـ بهذه المناسبة . . هل تعشيت أم بعد ؟ ؟

ـ كلا ياسيدى . . لم أجد وقتا للعشاء .

ـ ولكن . . الست جائعة ؟ ؟

ـ عندما نصل إلى المنزل . . سأتناول قطعة من الخبز والجبن . وسأصنع لنفسى كوبا من الكاكاو .

ـ يبدو لى ذلك غريبا نوعا .

وكانت تسرى فى الجو روح من البهجة والانتعاش ، وقد بدا الناس الذين يمرون بها من هنا وهناك ، كأنما قد اترعوا زهوا يطفر بهم خفة ومرحا ، واحسّ هو أيضا كأن قلبه يثب ويتوفّز فوجد نفسه يقول :

ـ اسمعى . . مارأيك فى ان تجيئ وتتعشى معى فى مكان ما .

ـ إذا شئت ياسيدى .

ـ تعالى إذن .

واستوقف عربة . . وملأ قلبه حب الخير والإحساس بنشوة العمل الانسانى النبيل . . وأمر سائق العربة أن يذهب به الى مطعم فى شارع اوكسفورد ، وهو مطعم حى مزدحم ، ولكنّه كان واثقا من انه لن يقابل فيه احدا من أصدقائه وعارفيه . وكان يعرف أن فيه اوركسترا تصدح بموسيقاها . . وقال فى نفسه : « فى ذلك مايسلىّ بريتشارد ويمتعها قليلا » . وعندما جلسا الى المائدة جاءهم الجرسون فقال يخاطب بريتشارد : « إنهم يقدمون هنا عشاء كاملا . . فما رأيك ؟ ؟ » وحدث نفسه بأن ذلك ماقد تفضّله بريتشارد ثم قال :

ـ اقترح ان نطلب عشاء كاملا . . فلم تمانع

وقد أكلت العشاء بشهية طيبة ومع أنه لم يكن جائعا فقد شاركها الأكل ليشعرها بالدعة ، وليزيح ماعسى ان يكون عالقا بنفسها من شعور بالارتباك والتحسّب . وكان الفيلم الذى شهداه منذ قليل مادّة خصبة استطاعا معا أن يستلها منها الكثير من مواضيع الحديث . . وجرى فى ذهنه ، وهو يتحدث إليها ، ان ماقيل له عنها منذ ليال صحيح ، إذ لم تكن بريتشارد امرأة دميمة اطلاقا ، ولو رآها راء ، وهما يجلسان متقابلين حيث هما ، لما وجد فى ذلك مايسترعى الانتباه أو الملاحظة ، وهجس فى نفسه : أنها ستكون قصة لطيفة أن يحدث أصدقاءه ، كيف اصطحب بريتشارد الفذَة الى

السينما ، وكيف تناول معها بعد ذلك العشاء .

وكانت بريتشارد ترمق المكان ومن فيه ، ومن فيه من الراقصين ، وعلى شفتيها ابتسامة شاحبة ذابلة ، ولاحظها هارينجر فقال :

ـ هل ترقصين يابريتشارد ؟

ـ كنت من المعدودات القلائل اللائى يحسنّ الرقص أيام كنت فتاة فى شرخ الشباب ولكنى لم أرقص كثيرا بعد أن تزوجت . . كان زوجى أقصر منى قليلا ، ويبدو لى ان الرقص لايتم على وجهه الأفضل الا إذا كان الرجل أطول قليلا من المرأة . . ولاشك أنك تدرك ما أقصد . . واحسبنى ساتخطّى السن التى أصلح فيها للرقص .

وكان ريتشارد أطول من مدبّرة منزله دون شك ، فقدر أن منظرهما ـ لو رقصا معا ـ سيكون منسجما تماما . وكان هو من المولعين بالرقص ويجيده الى حد كبير . . ولكنّه تردد ، ولم يشأ أن يزيد فى ارتباكها بان يطلب منها أن تراقصه هو . . ومع ذلك ، فما أهمية المسألة ، وماذا فيها مما يمكن أن يمسّه من قريب أوبعيد . إن الحياة التى تمارسها مظلمة فارغة دون شك ، ولذلك فقد تكون مفرطة الحساسية ، فإذا إعتبرت دعوته للرقص غلطة ، فلا ريب انها ستجد لها مبررا مقبولا . . فقال عندما عادت الأوركسترا تصدح بلحن جديد :

ـ هل تحبين أن نأخذ لنا جولة يابريتشارد ؟ ؟

ـ ولكنى اخشى أن ينقصنى الكثير . . فإنى لم ارقص منذ زمن طويل .

ـ وماذا يهم ؟ ؟

ـ اذا شئت ياسيدى .

والقت ردّها فى فتور ، وهى تنهض عن كرسيها ، ولكن لم يكن بها شىء من التعثر أو الخجل وبدا له أن كل ماكانت تخشاه هو ألا تستطيع متابعة خطواته . . وانسابا الى الحلبة ، ورقصا ليكتشف انها تجيد الرقص حقا فلم يملك ان قال :

ـ أوه . . انك لتحسنين الرقص جدا يابريتشارد .

ـ انى استعيد الكثير ياسيدى . .

ومع أنها كانت امرأة كبيرة الحجم نوعا ، فقد كانت ـ رغم ذلك ـ خفيفة رشيقة . وكانت تتمتع باحساس لدنى بالإيقاع . . كان الرقص معها شيئا جميلا ممتعا . . وألقى نظرة على المرايا التى تغطى الجدران وهى بين ذراعيه فلم يملك الا أن يقرر انهما ـ وهما يرقصان ـ منسجمان ورائعان . وتقابلت نظراتهما فى المرآة ، فتساءل : « ترى هل كانت هى ايضا ترى رأيه فى انسجامهما وتوافقهما ؟ » . . ورقصا جولتين اخريين ، ثم اقترح هارينجر ، ان عليهما ان يذهبا الى البيت . وبعد ان دفع الحساب ، خرجا ولاحظ وهى تمشى الى جانبه انها كانت تشق طريقها فى الزحام دون ان يبدو عليها أثر من الشعور بحقيقتها كخادمة . وركبا التاكسى ، وماهى الا عشر دقائق حتى كانا فى البيت . وحين إتجها نحو المصعد قالت بريتشارد :

ـ سأذهب من السلم الخلفى .

ـ لاحاجة بك الى ذلك . . تعالى معى فى المصعد .

واصطحبها معه ، وهو يلقى على بواب الليل فى العمارة نظرة جامدة ، متوخيا بذلك ألا يرى فى عودته ، فى تلك الساعة المتاخرة من الليل ، تصحبه مدبرة منزله أمرا يسترعى الانتباه وفتح باب الشقة ، وماكادا يدخلان حتى قالت :

ـ حسنا . . أتمنى لك ليلة سعيدة ياسيدى . . وشكرا . . الف شكر ، فقد كانت مأدبة كاملة وتكريما لن أنساه .

ـ شكرا يابريتشارد . لو أنى ظللت وحدى لقضيت ليلة ثقيلة مملة حقا . عسى أن تكونى قد استمتعت بهذه النزهة على أفضل وجه .

ـ على وجه أعجز عن وصفه ياسيدى .

وقد كانت ليلة ناجحة بالنسبة لهارينجر ، إذ بعثت فى نفسه إحساسا بالرضى والارتياح لأنه قد قام بشىء نبيل حقا . . وانه لشعور طيب من المرء أن يعمل على امتاع انسان ما إمتاعا صادقا . . وبعث عمله الانسانى فى اعماق قلبه دفئا وحماسا لفعل الخير يكاد يحس معهما أنه يكن حبا واسع الأصداء للجنس البشرى بأجمعه . . وقال لها ومشاعره تحتدم نبلا وطيبة :

ـ اتمنى لك ليلة سعيدة يابريتشارد . .

وكان مألوف عادته ألا يستيقظ فى الصباح حتى تدخل عليه بريتشارد ببريده . . ولكنه فى اليوم التالى استيقظ فى السابعة والنصف .. وكان قد تعود أن ينام على وسادتين تحت راسه ، فسرعان ماتنبه الى حقيقة ان راسه يتوسد واحدة فقط . وعندئذ تذكر . .

واخذ يتلفت حوله فى دهشة . .

وتأوّه وهو يقول : « انها طيبة القلب . . طيبة القلب » وبرق فى ذهنه على الفور ، انه سوف لن يجد مخلوقا اخر يعنى بملابسه ، ويهتم بفضياته ، بتلك الدقة والعناية التى امتازت بها هذه الـ (بريتشارد) إنها تعرف ارقام تليفونات أصدقائه جميعا . . وتحسن ، ايما إحسان ، خدمة المائدة . . ولكن . .

ولكن لامفر من الاستغناء عنها على أية حال . . ويجب أن تدرك هى وتقدّر ان الأمور لن تسير منذ اليوم ـ بعد الذى حدث ـ كما كانت تسير عليه من قبل . وسيقدّم لها هديّة طيبة ، ويزودّها بشهادة قوية . . وفكّر وتساءل : « ترى كيف ستبدو حين تدخل عليه بين لحظة وأخرى هذا الصباح ؟ هل تخلع العذار ، وتسقط الكلفة ، فتهاجن فى حديثها معه وفى مسلكها نحوه ، أم انها ـ ياترى ـ ستصطنع الجد والرصانة . . لعلها لن تكلّف نفسها حتى عناء الدخول عليه ببريده كالعهد بها كل صباح . . وكم يكون الأمر فظيعا أن يضغط زر الجرس فتدخل عليه مسز جيدى الطاهية ، لتقول : « إن بريتشارد لم تغادر فراشها بعد . »

إنها تستجم أو تأخذ راحتها بعد الليلة البارحة. . وردّد مرة أخرى : « كم . . كم كنت أحمق . . حقيرا بل وضيعا ايضا . »

وسمع طرقا خفيفا على الباب ، وقد مزّق اعصابه القلق فهتف : « ادخل » . وحين قالها ، لم يكن هناك من يبزه تعاسة وشقاء . . وقد دخلت بريتشارد عندما دقّت الساعة النصف بعد السابعة تماما. . وقد ارتدت نفس الفستان المشجّر الذى اعتادت ان ترتديه فى الساعات الأولى من النهار كل يوم . . وقالت وهى تدخل :

ـ صباحا سعيدا .

ـ صباحا سعيدا .

وأزاحت السجف عن النوافذ ، وقدّمت اليه الرسائل والصحف . . وكان وجهها جامدا خاليا من أي تعبير . . وقد بدت كما ظلّت تبدو دائما ، ولحركتها وهى تمشى من نافذة الى أخرى نفس التأنى الوطيد الذى عهده لها . . ولم تتجنّب نظرات ريتشارد ، ولكنّها لم تبحث عنها ايضا وقالت :

ـ هل سترتدى البدلة الرمادية ياسيدى ؟ ؟ لقد أرسلها الخياط أمس .
ـ أجـــل .

وتظاهر بأنّه يقرأ رسالة . . ولكنّه ظل فى الواقع يلحظها من وراء أهدابه دون أن تشعر . . كان ظهرها اليه . رآها تتناول صدريّته وسراويله وتطويها ثم تضعها على أحد الكراسى ، واقتلعت الأزرّة من القميص الذى كان يرتديه فى اليوم الماضى ، وبثتها فى قميص آخر نظيف ، وأخرجت له جوارب نظيفة ووضعتها على الكرسى ... وحينئـذ أخرجت له البدلة الرمادية ، وشبكت حمالة البنطلون فى مكانها ، وفتحت خزانة ثيابه ، وبعد نظرة للحظات ، اختارت ربطة عنق تلائم البدلة ، وجمعت على ذراعها بذلة اليوم الماضى ، والتقطت الحذاء ، ثم قالت :

ـ هل ستتناول فطورك الآن ياسيدى ؟ ؟ أم أنك ستستحم أولا .
ـ بل سأتناول فطورى الآن .
ـ أمرك ياسيدى .

وتركت الغرفة فى مشيتها تلك الهادئة المتّزنة ، وعلى وجهها نفس التعبير الجاد . الناضب الذى ندر أن يلوح على وجهها سواه .

وماحدث فى الليلة الماضية ، يحتمل أن يكون حلما . . حلما فقط . . إذ لم يكن فى ملامح بريتشارد ، أو تصرفاتها ما ينم عن مافى ذهنها ، حتى مجرّد الذكرى الباهتة .

وأرسل من صدره المزحوم المثقل ، آهة ارتياح وخلاص .

كل شيء سيكون على مايرام . . ولاداعى لخروجها من داره . . كلاّ لاداعـى إطلاقا . بريتشارد أكمل مدبّرة منزل عرفها رجل . . وإنه لعلى يقين أنها لن تشـير

بكلمة ، ولابلمحة ، أو غمزة إلى تلك الحقيقة التى لن تنسى ، وهى : أن علاقتها به ، وعلاقته هو بها ، كانت فى لحظة من اللحظات ، تختلف تماما ، عن تلك العلاقة التى تقوم بين سيد وخادمته .

بلى . . .

لقد كان ريتشارد هارينجر رجلا سعيدا دون ريب . .



فهرست

الموضوع | الصفحة

هذا الكتاب

- يُجمع النقاد على أنَّ ويليام سومرست موم، هو أعظم مَن كتب القصّة القصيرة في القرن العشرين .. ولكنَّ هذا لا يتعارض مَعَ شهرته الواسعة ككاتب مسرحي، وكاتب رواية من الطراز الأرفع في هذا القرن، وقد يُعَلَّلُ لنجاحه ككاتب روائي بأنه، وقد عاش ألواناً مِنَ التجارب، مُنذ طفولته وحتى ما بعد أواسط عُمْره، قد استفاد من هذه التجارب واستثمرها أفضل استثمار في أعماله .. فكأنَّ الكثير مِنْ هذه القصص والروايات تصويرٌ وتسجيلٌ لسيرته الذاتية ..

- في سنة ١٩١٥م نشر روايته (عبودية الإنسان) وهي مِنْ أشهر أعماله، وفيها تسجيل يكاد يكون أميناً لشريحة من سيرة حياته في بيت عمه القسيس .. وفي مدرسة الملك ..
وظل إنتاجه في الرواية والمسرحية والقصص القصيرة يتلاحق ويتدفق بعد ذلك بغزارة وقوة، وقد استتبع ذلك - بطبيعة الحال - تهافت دور النشر والمسارح على أعماله. ليس في انجلترا فقط وإنما في جميع أنحاء العالم ..

- ويمكن أن يعتبر موم مثالاً لما يحققه الأدب من النجاح في بلد كانجلترا. إذ نجده في فيلا (**Mauresque**) في نيس، وحوله أكثر من سبعة من الخدم، وأكثر من أربعة يعنون بالحديقة الرائعة، وفي رفقته سكرتير وصديق قيل عنه، إنه مثال فريد للإخلاص إذ ظل يعني بموم، وبجميع شؤونه إلى أن توفي بعد التسعين من العمر .. كما نجده يتحدث عن رصيد يتجاوز المليون أو المليونين في البنوك .. ويعيش مستوى من المعيشة يعجز عنه كبار الأثرياء والوجهاء ..

من مقدمة المترجم

نبذة وافية عن المترجم في كتاب «عهد الصبا في البادية» سلسلة الكتاب العربي السعودي رقم «٣»

طبعت بمطابع دار البلاد - جدة